التجربة الأولى

إحسان عبد القدوس



قلبى فى دمشق

لا.. شكراً..

انه لايستطيع ان يقضى ساعة من وقته فى تناول الغداء مع فتاة تافهة.. لا تقرأ.. ولا تتحدث فى السياسة..

ولكنه بعد أيام دعاها إلى الغداء!

وقبلت..

واخذته بعيداً.. بعيداً جداً.. خارج دمشق.. كأنها تختبىء به.. وتناولا الطعام فى مطعم هادىء.. على أطراف الصحراء.. مطعم اسمه «الواحة».. وتحدثت.. ولأول مرة يحس ان الحديث يمكن ان يكون ممتعاً حتى ولو لم يكن حديثاً فى السياسة أو الثقافة..

وفى عودتهما غنت له اغنية لفيروز.. ورأى من خلال صوتها صورة جديدة لدمشق.. دمشق الرقيقة، الزاخرة بالعاطفة، المقبلة على الحياة.. وعندما تركها، وذهب إلى بيته، وجد نفسه يردد أغنية فيروز..

ولم يعد يقاوم..

لعله الحب..

ولكن، كيف يحب فتاة ليست مثقفة.. ولا تقرأ كتباً.. ولا تروى أشعاراً.. كيف يمكن ان ينزل إلى هذا المستوى..

ولكنه لا يستطيع ان يقاوم..

انه يحب..

وعرف ان الذى يحب فى دمشق، يجب ان يختبىء.. وقد دلته إلى طريق الاختباء. كانت تصحبه أحياناً إلى بيت بعض صديقاتها.. وأحياناً تخرج به إلى أطراف دمشق..

ومر بالتجربة الأولى فى حياته..

تجربة القبلة..

قد تكون شفتاه قد مرتا على شفاه بنات فى القاهرة.. ولكن هذا المرور لا يمكن ان يرتفع إلى مرتبة القبلة.. هذه القبلة التى تعلمها فى دمشق..

ولكنها كانت دائماً قبلات قليلة فى فترات متباعدة.. خوفاً من الناس.. خوفاً من مجتمع دمشق.. وكان يضطر تحت ضغط الخوف من المجتمع،

ان يحادثها عن طريق الخطابات عندما يعجزهما اللقاء.. والذين يحبون فى دمشق هم أكثر المحبين فى العالم تبادلاً للخطابات..

لماذا لا يتزوجها، ويستريح..

انها تلح عليه فى الزواج..

ولكن..

كيف يتزوجها، وبينهما كل هذه الجبال من اختلاف العقليات. هو يهوى الثقافة. وهى لا تأبه بها.. وهو منطو لايخرج من بين صفحات كتاب إلا إذا وجد من يناقشه فى موضوع كتاب أو نظرية سياسية.. وهى فتاة مجتمع، كثيرة العلاقات بالناس، مقبلة على ضجيج الحياة.. ثم هو فقير من عائلة فلاح متواضع.. وهى من عائلة كبيرة، لم تعرف الفقر..

ثم..

همس فى اذنه بعض زملائه.. لا تتزوجها.. وكان أكثرهم همساً زميله فى العمل، «ناصح».. انه يروى له عنها كثيراً من القصص.. وكثيراً من المغامرات.. انها فتاة.. لتلهو بها، لا لتتزوجها..

ثم..

انه لا يصدق انها تحبه.. انه فى الواقع لا يصدق ان هناك فتاة يمكن ان تحبه.. ربما رأت فيه شيئاً غير الحب. ربما تريد ان تصل عن طريقه إلى شىء..

ولكنه يحبها..

حتى لو لم يكن يصدق انها تحبه..

وكتب لها خطاباً بكل ما يدور فى عقله وفى قلبه.. قال لها انه لا يستطيع ان يتزوجها. لأنه قد لا يقيم طويلاً فى دمشق.. وحدثها عن انطوائه، وعن انطلاقها.. وعما رواه زملاؤه عن مغامراتها.. وعن فارق الثقافة بينهما.. وعن فقره..

وردت عليه.. انها ستذهب معه إلى أى مكان لو ترك دمشق.. ستذهب معه إلى آخر الدنيا.. وأنها تضع عقلها بين يديه ليسقيها من ثقافته.. ولا يهمها فقره. فكل أخواتها قد تزوجن من شبان فقراء وسعدن معهم..

أما الذين تحدثوا عنها فهى تعرفهم.. على رأسهم صديقه «ناصح».. أليس كذلك.. وهى تؤكد له ان ناصح يسعى إليها.. انه يقبل قدميها لو رضيت ان تتزوجه؟ ولكنها لن ترضى ان تتزوج مثله.. انساناً ثرثاراً خبيثاً.. و..

وقرأ خطابها، وعاد يفكر فى الزواج بها.. وبدأ يراها أجمل مما كانت.. ويقنع نفسه ان تجاربها، وانطلاقها، قد زوداها بثقافة، ربما كانت أوسع من الثقافة التى يزود نفسه بها من خلال الكتب..

ولكن صديقه ناصح يحذره.

ولا يزال يحذره ..

وفجأة لم يعد يطيق التردد.. سيتزوجها.. مهما قال عنها صديقه «ناصح».. وحتى لو كان ما يقوله صحيحاً.. فانه يغفر لها مغامراتها.. بل يعتقد ان هذه المغامرات هى جزء من الشخصية التى احبها..

وفاتحها فى الزواج ..

وفرحت ..

وعاد إلى القاهرة ليستأذن أهله، ثم رجع إلى دمشق.. ودعى هناك لدى احدى العائلات.. وسألوه:

هل صحيح سيتزوج!!

وانطلق يروى القصة كلها.. قال انه احبها، وانه سيتزوجها، رغم اختلاف الثقافات، ورغم ان صديقه ناصح يحذره منها..

وما كاد يخرج، حتى ذاع حديثه فى دمشق كلها..

وهمست دمشق ..

همست دمشق كفحيح الثعبان .. همساً يقتل..

وفى اليوم التالى اتصلت به فتاته فى التليفون، وصرخت:

— انك تتحدث عنى فى بيوت الناس.. لن أتزوجك.. لن أتزوجك قبل ان اثبت لك قيمة ما يقوله عنى صديقك ناصح..

وحاول ان يرد، ولكنها قذفت بسماعة التليفون فى وجهه..

وحاول ان يراها، وأبت..

وكتب إليها، ولم ترد..

بعد اسبوعين، فوجىء بزواجها من ناصح..

●●●

وعاد صلاح إلى القاهرة محطماً.. وقد ترك قلبه فى دمشق..

وقال لى وهو يتنهد :

— ان مجتمع دمشق مجتمع ثرثار.. ولا سبيل للحب هناك، الا ان تنجو به من هذه الثرثرة..

وعاد إلى كتبه..

عاد جافاً صلباً.. حياته كلها هتاف.. هتاف على لسانه.. وهتاف فى قلبه.. وهتاف فى عقله.. هتاف لدمشق.. ميدان الكفاح.. والأرض التى نبتت فيها زهور الوحدة.. وذبلت فيها زهور حبه!

●●●



جائعة فى باريس



كنت فى باريس عام ١٩٤٨..
وباريس كالمرأة.. عندما تزورها للمرة الأولى، تهتم بجمالها.. وعندما تزورها للمرة الثانية تهتم بعقلها وثقافتها.. وعندما تزورها للمرة الثالثة، تملها !!

وكانت هذه هى المرة الثانية التى أزور فيها باريس.. وكنت أقضى أيامى فى هدوء.. أحاول البحث عن عقل باريس.. لم تعد نساء باريس يبهرننى، ولم تعد حاناتها تجتذبنى.. إنما كنت أحاول أن أفهم.. وأن أتثقف.. وأن أسمع القصص.. وأن أتمتع بغداء شهى، وعشاء لذيذ.. ونوم هادىء..

وذهبت مرة لزيارة متحف اللوفر، لأزوره، ضمن برنامج الثقافة الذى وضعته لنفسى.. وكانت الساعة الثانية عشرة ظهرا.. وفوجئت بأن وجدت أبواب المتحف مغلقة.. ولم يكن هناك مكان آخر أريد أن أذهب إليه.. فأخذت أتمشى فى حديقة المتحف.. وأدوس بقدمى أوراق الشجر الصفراء المتساقطة على الأرض..

ثم لمحت فتاة جالسة وحدها على إحدى الأرائك الحجرية المنتشرة فى الحديقة.. ولا أدرى ما الذى دفعنى إليها.. ربما جمالها، وشعرها الأصفر الناعم المنسدل على كتفيها.. وربما جلستها الحزينة الوحيدة.. وربما الملل الذى كنت أشعر به وقتها.. المهم أنى وجدت نفسى مندفعا إليها، بلا تردد، وبلا تفكير.. رغم أنه ليس من عادتى الاندفاع نحو النساء، أو ملاحقتهن فى الطريق والحدائق العامة.

ووقفت أمامها وقلت فى أدب:

— هل استطيع أن أسأل !..

ورفعت إلىّ عينيها الزرقاوين، وقاطعتنى فى حدة قائلة فى لهجة فرنسية تختلط بها رنة لغة أخرى:

— لا .. لا تستطيع أن تسأل..

ودهشت لهذا النفور المفاجىء.. لعلها اعتقدت أنى أغازلها.. وقلت كأنى أدافع عن نفسى:

— آسف.. ولكن لماذا لا استطيع أن أوجه اليك سؤالا..

وعادت ترفع إلىّ عينيها الزرقاوين، ونظرت إلى ملياً فى غضب، ثم صرخت:

— لانى جائعة.. أتعرف ما هو الجوع.. إنه يحرمنى من متعة الاستماع إلى سؤالك والاجابة عليه.. ولكنك لا تعرف الجوع.. يبدو عليك إنك تناولت إفطارك ثلاث مرات..اغرب عن وجهى..

وانقبض قلبى..

ولم أتحرك من مكانى.. أحسست تواً أنها لا تصرخ إلا لأنها فى حاجة إلى الصراخ..

وأخذت أنظر إليها صامتاً.. فى بلاهة وارتباك.. إنها قد تكون فعلا جائعة، رغم أنه لا يبدو عليها أنها من بنات الرصيف.. رصيف باريس.. إن وجهها نظيف، وأنفها مرفوع، وليس فى عينيها خلاعة.. وثوبها محتشم.. ولكن لونها باهت وحذاؤها ممزق، ضاع لونه..

وقلت فى تردد:

— أنا أيضا جائع.. و..

وعادت تقاطعنى:

— وتريد أن تدعونى إلى الغداء.. أليس كذلك؟

قلت :

— نعم..

قالت وهى تقفز واقفة :

— قبلت الدعوة..

وسارت بجانبى فى خطوات سريعة.. لا.. سارت أمامى.. وأنا ألحق بها لأكون بجانبها.. والدهشة لا تزال فى عينى .. كيف تكون فتاة بهذا الجمال .. وفى عمر الشباب.. جائعة فى باريس !

ودخلنا أول مطعم صادفناه فى طريقنا..

وأكلت .. أكلت كثيرا.. حساء.. ولحم.. وخضروات وفطيرة بـالكـريم.. أكلت دون أن ترفع إلىّ عينيها.. وأنا جالس أمامها أرقبها دون أن آكل شيئا.. فلم أكن جائعا.. كنت قد تناولت افطارى متأخرا..

وانتهت من الأكل.. واسترخت نظراتها الحادة.. وقفزت الدماء إلى وجنتيها.. ومالت على ظهر مقعدها، ومدت ساقيها أمامها.. كأنها تستريح بعد مشوار طويل قطعته جريا..

ثم فجأة اعتدلت فى جلستها، وقالت فى صوت ضعيف خجول كأنها تذكرت شيئا يقلقها :

— والآن لنتحدث فى الثمن ؟

قلت :

— ثمن ماذا ؟

قالت وهى تخفى عينيها عنى، وتعبث بأصابعها فى غطاء المائدة:

— الثمن الذى تريده..

قلت صادقا :

— أنا لا أريد ثمنا..

قالت وهى ترفع عينين قلقتين إلىّ :

— أرجوك .. لا تتعبنى.. فقد لا يكون لى خبرة فى هذه الأمور.. ولكنى على الأقل أعرف أن لكل شىء ثمنه.. وقد أطعمتنى، فلابد أن أدفع لك شيئا نظير إطعامى.. قل لى.. هل تريدنى الآن ؟.

قلت وأنا دهش لهذه السذاجة :

— أنا لا أريدك..

قالت :

— إن ذلك لا يجعلنى أطمئن اليك..

قلت :

— إذن .. سأتركك حتى تطمئنين..

وناديت الجرسون، ودفعت له الحساب ، وقمت منصرفا، وهى لا تزال جالسة تنظر إلىّ فى صمت.. وعيناها حزينتان مرتبكتان..

وما كدت أخطو خطوات خارج المطعم، حتى تذكرت.. لقد كانت جائعة.. وربما ستجوع مرة ثانية.. بل إذا كانت جائعة، فلابد أن ليس لها مكان تبيت فيه.. و..

وعدت إليها..

ووجدتها جالسة نفس جلستها.. ساهمة..

ورأتنى أعود، فابتسمت لى، ابتسامة حزينة.. واقتربت منها، وقلت فى حدة :

— هل لديك مكان تذهبين إليه.. أقصد .. أين تسكنين؟

قالت :

— لا أعرف..

وترددت برهة، ثم أخرجت من جيبى عشرة جنيهات.. وألقيت بها على المائدة قائلا :

— إلى أن تعرفى أين تسكنين..

ثم أدرت ظهرى وهممت بالانصراف، فصاحت ورائى:

— انتظر..

والتفت إليها.. وجمعت النقود بين يديها، ثم جاءت إلىّ قائلة وفى عينيها توسل:

— إنى فى حاجة الى هذه النقود.. ولكن أرجوك، أتمم جميلك، ودعنى أؤدى لك أى عمل.. إنى هولندية، وأجيد الفرنسية، والايطالية.. وأكتب كل هذه اللغات على الآلة الكاتبة، وبالاختزال.. ولا بد أن هناك عملاً استطيع أن أؤديه فى خدمتك، نظير هذه النقود..

قلت وأنا أبتسم لها :

— هل تعرفين باريس ؟

قالت:

— شارع، شارع.. وحارة، حارة..

قلت :

— حسنا.. ستكونين دليلى فى باريس.. ولنبدأ بالسؤال الذى كنت أريد

أن أوجهه لك عندما التقينا.. متى يفتح متحف اللوفر أبوابه !!

قالت فى نشاط ووجهها كله يبتسم :

— الساعة الواحدة.. مسيو !

و..

وقضيت أيامى كلها فى باريس مع « مونى ».. وهذا هو اسمها.. ولم أكن أتمتع بمشاهدة باريس، بقدر ما كنت أتمتع بصحبة «مونى».. كنا نجول جولة صغيرة، ثم نجلس فى أحد المقاهى.. أو نذهب إلى حجرتها التى استأجرتها فى أحد فنادق باريس الرخيصة.. أو إلى حجرتى فى فندق «كلاريدج ».. ونتحدث.. لم يكن بيننا أكثر من الحديث.. لم تشجعنى على ما هو أكثر منه.. ولم أطلب منها أكثر .. كان حديثها جميلا هادئا، وثقافتها واسعة.. كانت تتحدث فى كل شىء كأنها تخصصت فيه.. فى الفن.. والسياسة.. والحرب.. و.. و.. لم أكن أشبع أبدا من حديثها..

وكانت تمر أحيانا فى فترات حزينة.. يشرد فيها عقلها.. ثم تفيق لتعتذر لى عن شرودها.. وأحيانا تنتابها نوبة عناد حاد.. فترفض أن تتناول عشاءها.. أو ترفض أن تذهب إلى المسرح.. ثم لا تلبث فى اليوم التالى أن تعتذر عن عنادها..

وكنت أعرف أن وراءها قصة..

ولكنها لم تقل لى قصتها إلا بعد أيام كثيرة.. كانت ترفض أن تتحدث عن نفسها.. ثم بدأت تلقى لى من قصتها شذرات.. ثم حكتها لى كلها..

إنها ابنة رجل ثرى فى أمستردام، ويمتلك شركة من شركات الألبان.. والطبقة الغنية فى هولندا، طبقة محافظة، متزمتة.. تزن الفرد باسم عائلته، وبثروته، وبعدد الفدادين التى يملكها.. وكان مفروضا أن تتزوج مونى من أحد شبان هذه الطبقة.. ولكنها أحبت .. أحبت طياراً إيطاليا يعمل على أحد الخطوط الجوية التى تمر بأمستردام.. وحاولت أن تقاوم هذا الحب.. وحاول أهلها أن يقاوموه.. ولكن الحب كان أقوى من أن يُقاوَم.. وتزوجت حبيبها..

وطردها أهلها..

طردوها من البيت، وأغلقوا فى وجهها أبواب المجتمع الهولندى المتزمت..

فجاءت هى وزوجها ليعيشا فى باريس..

واضطرت فى باريس أن تعيش فى مستوى أقل مما تعودته فى بلدها.. وحاولت أن تكتب إلى أبيها الثرى الكبير، ليمدها ببعض العون.. فرفض.. لم يرد على خطابها..

ورزقت بولد..

وأرسلت صورة ولدها إلى أبيها.. لعله يصفح .. ولكنه لم يصفح.. لم يرد على خطابها..

وأعلنت الحرب..

وجند زوجها فى سلاح الطيران الايطالى.. واضطرت أن تترك باريس، وحملت ولدها، وذهبت إلى بلدها.. إنها هناك تستطيع أن تحتمى من مصائب الحرب ..

ولكن أباها رفض أن يصفح..

عاشت فى امستردام، فى بيت متواضع.. وزوجها يرسل إليها جزءا من مرتبه.. وبيت أهلها محرم عليها.. والمجتمع الهولندى يغلق فى وجهها أبوابه..

عاشت غريبة وحيدة.. فى وطنها

ثم قتل زوجها فى الحرب..

وأرسلت إلى أبيها تقول له أن زوجها قتل..

ولكنه لم يصفح..

واضطرت أن تعمل.. لم يرض أحد من رجال الشركات أن يعطيها عملا، خوفا من أبيها.. فاضطرت أن تعمل كناسة.. بنت العائلة الكبيرة.. وكل هذا الجمال.. وكناسة .. تكنس الشوارع بعد أن يهجرها الماضى.

وتحملت..

ولكن ابنها لم يحتمل .. مات.. من سوء التغذية.. وعرف أبوها أن ابنها قد مات .. فصفح عنها !!

صفح عنها بعد أن اطمأن إلى أنه لم يعد من حبها أثر.. لا الزوج، ولا الابن..

ولكنها رفضت أن تصفح..

رفضت أن تعود إلى البيت.. وتذلل لها أبوها.. إنه يريدها فى بيته.. إنه يعتذر.. وهى سعيدة بذله.. شامتة فيه.. ولكنها ترفض أن تصفح..

وتركت امستردام، وعادت إلى باريس .. وقد قررت أن تعمل أى عمل تؤهله لها ثقافتها.. واللغات الأربع التى تجيدها .. ولكن باريس ليس فيها عمل .. كل هذا العالم النشط ليس فيه عمل لفتاة جميلة وحيدة، جائعة.. إلا عمل واحد.. إلا أن تبيع جسدها على الرصيف !.

وقاومت حتى لا تضطر أن تبيع جسدها..

وعرف والدها أنها جائعة فى باريس.. واعتقد أنها لا بد مضطرة إلى بيع جسدها.. فجاء إليها يستعطفها أن تعود.. ألا تلطخ اسم عائلتها واسمه بوحل باريس..

وقالت لى مونى، ونظراتها ساهمة :

— لقد كان هنا فى الأسبوع الماضى..

قلت :

— ولماذا لم تعودى معه ؟

قالت :

— لأنتقم منه.. إنه هو الذى قتل ولدى.. فلا أقل من أن أقتل كرامته..

قلت :

— إنك عنيدة..

قالت :

— ألم تسمع عن عناد الهولنديين.. هذا هو عنادنا..

ثم سكتت قليلا، واستطردت وابتسامة التشفى بين أسنانها :

— أتدرى.. يوم أضطر إلى بيع جسدى، فلن أبيعه إلا إلى أهل أمستردام.. وإلى أصدقاء أبى على الأخص.. رجال العائلات الكبيرة.

وأصبحت بعد ذلك أحس بشىء كالخوف كلما جلست مع مونى.. الخوف من هذه الطاقة الهائلة للانتقام التى تخفيها فى صدرها..



نعيماً أيها المجانين



أنا حـلاق. وكثيرون لا يزالـون يعتقدون انى مجنـــون، ويـــرفضـــون أن أحلق لهم رؤوسهم أو ذقونهم.

ولا بأس إذا اعترفت لكم الآن.. فقـــد كنت مجنـــونـاً فعــلا.. كنت مـــريضـــاً بما يسمى «المجالومانيا»، أى جنون العظمة.. وقد اشتد بى المرض يـوما حتى خيل إلىّ انى نبى مـرسل من الله، وكانت وسيلتى لهدايـة البشر هى أن أضربهم على أقفيتهم.. وظللت أضرب الناس على أقفيتهم حتى حملونى إلى مستشفى العباسية.. مستشفى المجانين.. وقضيت هناك ثلاثة أشهــر.. ثم خـرجت.. ولم أكـن قـد شفيت.. كل مـــا هنـــالك انى دخلت المستشفى مجنوناً خطراً، وخرجت منها مجنوناً هادئاً.

ولكنى الآن شفيت.

شفيت تماماً.

أؤكد لكم انى لم أعد مجنوناً.. لا مجنوناً خطراً ولا مجنوناً هادئاً.

شفيت.. وليس لطبيب فضل فى شفـائى.. كما لم تشفنى معجـزة.. ولم يشفنى عاقل.. إنما عالجنى وشفانى مجنون مثلى!!

واسمعوا القصـــة.. انها قصة إن لم تهمكم فقـد تسليكم.. ولكنهـا قطعاً تهم أطباء الأعصاب، وأطباء النفس، فهى تنتهى إلى وضـع نظـرية جديدة فى معالجة المجـانين، يستطيع أى طبيب أن يبحثها ويضعها فى صيغـة علمية. ثم ينسبها إلى نفسه.. ولن انازعه حقه فيها، ولن أدعى فضلاً لنفسى!!

لقد خرجت من المستشفى، وعدت ازاول مهنتى فى الـدكان الذى تعودت أن أعمل فيه.. وكنت ـــ كما قلت ـ قد أصبحت مجنونـا هادئا.. كنت لا زلت مريضـــا بجنون العظمة.. وكنت أعلق فـوق المرآة التى أعمل أمامها يـافطة كبيرة كتبت عليهـا: «ارفع رأسك للخـــلاق، واحن رأسك للحـــلاق».. وكنت أعامل الزبائن على انهم اقزام.. وأحيانا أعاملهم على انهم ميكروبات.. ولكن هذا الاحســـاس لم يكن يؤثـر فى صناعتى أو فنى.. فقـد كنت ولا زلت أمهر

حـلاق فى الجمهـورية العربيـة المتحـدة.

والمجـانين ـ كبقيـة المرضى بأنـواع المرض المختلفـة ـ تجدهم يعـرف بعضهم بعضـــا.. وينجـذب بعضهم إلى بعض.. ويسمع كل منهـم أخبـار الآخرين ويتتبعهـا.. وإذا أصيب واحد منكم بـالذبحة الصـدرية ـــ مثلا ـ فسيكتشف فجأة أن هنـاك آلافـا غيره مصـابـون بـالذبحـة الصـدريـة، وسيسمع عنهم، وتأتيه أخبارهم وأخبار العلاج الذى يتناولونه.

وكذلك مرضى السكـر.. ومرضى القـرحة.. وكما يعـرف أبناء المهنـة الواحدة بعضهم بعضا، فكذلك يعـرف أبناء المرض الواحد بعضهم بعضا.. إن المريض عندما يصاب بمرضه يجد نفســه يدخل عالما خاصا كل من فيه مريض بنفس المرض.. وكذلك المجانين!

وقد كـان من بين زبائنى كثير من المجـانين، يجذبهم إلىّ وحدة المرض.. وحدة الجنون.. وقد كنت أرى منهم تصرفـات عجيبة.. كان من بينهم واحد يصر على أن يخلع حـذاءه عندمـا احلق له رأســه.. وكان زميلى فى الجنـون، الاستـاذ عصمت فخرى، يصر على أن أحلـق له شعـره كل يـوم.. وأحيانـا مرتين فى اليوم.. لأن صوت المقص وهو يتحرك بجانب اذنه يريح أعصابه.. و.. و.. كثير من المجـانين، ولم تكن تصرفاتهم تثيرنى، أو تـدهشنى، فنحن المجانين نستطيع دائما أن يفهم بعضنـا بعضـا.. كالأطفـال.. إن الطفل أقدر على فهم وتقبل تصرفات طفل آخر، من الرجل الكبير.

إلى أن كان يوم..

وقفت سيارة فخمـة أمام بـاب المحل.. ونزل السـائق، ورأيته يهمس فى أذن صـاحب المحل طـويلا.. ورأيت صـاحب المحل تعلـو وجهـه علامـات الحيرة، ثم ينقل عينيـه بين الحلاقين الذيـن يشتغلون معى، إلى أن يستقـر بهما علىّ.. ثم طلب منى فى صوت مرتعش أن أذهب مع السائق لأحلق شعر حمادة «بيه».. نجل المليونير المعروف منصور باشا ـ سابقا ـ عبدالعظيم.

ولم أفهم سـاعتهـا سببـا لهذه الحيرة والتردد اللـذين كـان يعـانيهما صاحب المحل.. وحملت حقيبتـى الصغيرة، وذهبت مع السائق.. واصررت على أن أجلس فى المقعـد الخلفى.. وحـــاول الســـائق أن يعترض.. ولكنى

صرخت فيه.. ماذا يظننى هذا التافه.. لولا انه لايعرفنى لصفعته على قفاه.

وتركنى التافه أجلس فى المقعد الخلفى، وقادنى إلى قصر كبير فى شارع الهرم، واسلمنى إلى السفرجى الذى قادنى فى أبهاء وممرات صامتة حزينة، حتى وصلنا إلى غرفة بابها مغلق..

وأشار السفرجى إلى الباب المغلق من بعيد ، وقال :

— اتفضل ..

ونظرت إليه بعينين قويتين آمره بأن يفتح لى الباب.. ولكن السفرجى تراجع بضع خطوات إلى الوراء، وعاد يقول :

— اتفضل .. اتفضل ..

ثم تراجع بضع خطوات أخرى وهو يردد :

— اتفضل .. البيه جوه.. افتح الباب.

ثم تركنى وحدى أمام الباب، واختفى.. هؤلاء الخدم الخفراء.. متى يعرفون واجبهم فى خدمة الأسياد.

وتقدمت، وفتحت الباب.. وأدرت عينى فى الغرفة الخافتة الضوء وفجأة.. فى ركن من الغرفة.. سقطت عيناى على وجه عجيب.. وجه أصفر، لشاب يبدو فى العشرين من عمره.. نحيل.. نحيل جدا.. كأنه على وشك الموت.. وعيناه واسعتان جاحظتان.. وشعر كثيف، خشن فوق رأسه، يغطى أذنيه، وينزل حتى يغطى جبينه الضيق.. وكل شعرة منتصبة كأنه شعر من السلك.. كأنه شعر رأس العبد التى تستعمل فى تنظيف السقوف وأعالى الجدران.

وما كاد يرانى حتى صرخ :

— امشى اطلع بره.. اطلع بره.. اطلع بره.

وصرخت فيه وقد انتفضت اعصابى حتى سقطت حقيبتى من يدى :

— اخرس.. أنت فاكرنى خدام أبوك علشان تجيبنى وتقول لى اطلع بره.. أنت مش عارف أنا مين.. أنا أحسن منك ومن أبوك.

وصرخ :

— حاقتلك .. حاموتك .. الحقونى.. حاموت.. الترامواى حايدوسنى..

موت.. اوعى الطيارة.

وعدت أصرخ فيه ..

واختلط صراخنا..

واخذت أتقدم منه وعيناى مسلطتان على وجهه.. ورغبة جامحة تملكنى لصفعه على قفاه.. وسيلتى لهداية البشر.. ورفع آنية زهور وقذفنى بها.. فسقطت تحت قدمى.. وهو يصرخ.. وأنا أصرخ.. وكلى تحفز لاصفعه على قفاه.. صفعة قوية انزع بها عنقه من فوق كتفيه.. وبدأ يتراجع.. وأنا أتقدم.. ورفع آنية أخرى ليقذفنى بها.. وقد ازدادت عيناه اتساعا وجحوظا، والذعر يشتد فيهما.. وأنا اتقدم.. وهو يصرخ.. وأنا اصرخ.. آه.. آه.. اخرس يا حشرة.. يلعن أبوك.. و.. و.. وفجأة سقطت الآنية من يده.. وأجهش بالبكاء.. وسقط فوق صدرى، قبل أن أرفع يدى لاصفعه.. وأخذ يبكى كالطفل البرىء.. وأنا واقف منتصب القامة كأنى اله.. ومددت يدى، وبدلا من أن اصفعه، مسحت على كتفه كأنى أمنحه بركتى.. بركة الله..

وبكى كثيرا على صدرى.. حتى هدأ.. وخيل إلىّ أنه على وشك أن ينام.. فأزحته من فوق صدرى.. وسحبت مقعدا وضعته فى وسط الحجرة.. والتقطت حقيبتى ووضعتها على مائدة، وفتحتها.. ثم التفت إليه وقلت بلهجة آمرة وأنا أشير إلى المقعد :

— اقعد..

وازداد انكماشا فى ركن الحجرة، وهو يهز رأسه فى حركات عصبية.. لا.. لا.. لا..

وصرخت فيه صرخة قوية :

— اقعد.. باقول لك اقعد..

وزحف بقدميه حتى جلس على المقعد وهو يرتعش.. وأمسكت بالمقص وطقطقت به فى الهواء.. فقام مفزوعاً وحاول أن يجرى من الغرفة.. ولكنى أمسكت به، وألقيت به فى قوة فوق المقعد، وأنا أصرخ فى قوة وعظمة :

— اجلس.. اوعى تتحرك.

وجلس وهو يبكى.

وهممت أن أقص شعره.. ولكنه مال برأسه إلى الوراء حتى أصبح من المستحيل علىّ أن أباشر عملى، فعدت أصرخ فيه :

— لا ياشاطر.. انت ماسمعتش حكمة النبى سليمان.. ارفع رأسك للخلاق، واحنى رأسك للحلاق.

وأحنى رأسه صامتاً.

كانت كل قواه قد استنزفت فاستسلم صامتاً، وكف عن البكاء.. وأخذت أقص له شعره.. وباب الغرفة مفتوح.. والخدم يمرون من بعيد، وينظرون إلينا فى دهشة.. ثم جاء «الباشا» ووقف عند باب الغرفة ينظر فى دهشة هو الآخر.. وطبعا احتقرت الباشا ولم أهتم بالنظر إليه.

وتعمدت أن أطيل فى المدة التى يستغرقها قص شعره.. فقد كنت أشعر بالراحة.. أشعر بكل عظمتى.. اشعر بأنى نبى.. أكثر من نبى.. أنا الله نفسه.. وكان هو أيضا مرتاحا، هادئا.. كأنه لن يثور أبدا.

وعندما انتهيت كنت قد قصصت شعره كله، وبدا إنساناً جميلاً قريباً من القلب.

وعندما هممت بالانصراف، أمسك بى، وصاح وهو يبكى مرة أخرى :

— لا..لا.. ما تسبنيش.. ما تسبنيش.

ونظرت إليه من علٍ، وقلت من طرف أنفى :

— فيه ناس كتير عايزينى.. مش انت بس..

وتركته وهو لا يزال يبكى..

وعدت إلى الدكان..

ولم يكد ينقضى ساعتان، حتى جاءت السيارة الفاخرة مرة ثانية ونزل السائق يرجونى ويتوسل إلىّ أن أعود معه مرة ثانية.. ثم تقدمنى.. وفى هذه المرة، فتح لى باب السيارة الخلفى.

وعدت لأجد حمادة فى حالة هياج شديد، وقد حطم كل ما استطاع أن يحطمه فى الغرفة.. ووالده الباشا واقف فى انتظارى يرجونى أن أحلق له شعره مرة ثانية.

وتكرر نفس المنظر.. صرخ.. وقذفنى بمقعد.. وصرخت.. ولعنت أباه.. إلى أن ارتمى فوق صدرى وبكى..

ولا أطيل عليكم.

إن حمادة مجنون مثلى.. ولكنه مريض «بالبارانويا» أى الاحساس بالاضطهاد.. وقد اشتد مرضه حتى أصبح مجنونا خطرا، لا تنفع معه إلا الحقن المخدرة.. والصدمات الكهربائية، وأنا..

ورجانى والده أن أترك المحل وأقيم مع حمادة فى القصر.. وقبلت لأنى كنت أحس انى رسول الله لهداية البشر.. ومنهم حمادة.. وقد كان حمادة سببا فى استبداد هذا الاحساس بى.. كنت أتركه وأنا أحس بأنى استطيع أن اهدى البشر فعلا.. وأسير فى الشارع وأنا أهمّ فى كل خطوة بأن أقبض على كل من يصادفنى وأحلق له رأسه لأهديه.

ولكن..

بدأ تطور عجيب يحدث لى.. تطور فى احساسى..

بدأ احساسى بالعظمة واقتناعى بأنى رسول الله، يتسلل إليه احساس آخر بمسؤوليتى عن حمادة.. ثم بدأ احساسى بمسؤوليتى عنه يشتد.. أصبحت لا أطيق أن افترق عنه.. حتى انى كنت أنام معه فى نفس الغرفة.. واطمئن بنفسى على طعامه، وأصحبه فى نزهاته وأنتظر النوبات التى تنتابه فأعالجها بنفس الطريقة التى عرفتها.. أشخط فيه، وألعن أباه، إلى أن يبكى ويهدأ.. فأقص له شعره، حتى لو لم يكن قد مر سوى يوم واحد على آخر مرة حلقت له فيها شعره.

وشيئا فشيئا.. اختفى من عقلى هذا الوهم بأنى إله، أو نبى، أو عظيم.. لم أعد أحس إلا بأنى حلاق.. وانى أحب حمادة، وأريد له الشفاء، وأساعده عليه.

وحمادة أيضا.. بدأت النوبات التى تنتابه تتباعد.. وأصبح هادئا فى معظم الأوقات طالما كنت بجانبه.. ثم بدأت أتعمد أن أغيب عنه فترات قصيرة، وأعود فأجده لا يزال هادئا.. وغبت عنه يوما كاملا، قضاه هادئا، و..

لقد شفى حمادة أيضا.
شفينا نحن الاثنان.
صدّقونى.. لقد شفينا نحن الاثنان.
بماذا يستطيع رجال الطب أن يفسروا هذه الظاهرة؟
انها ظاهـرة تكشف عن مبدأ جديـد فى علم الأمراض العقلية، مبـدأ يقرر «لايشفى المجنـون إلا مجنـــون».. تمامـا كما تقـــول «لا يفل الحديـد إلا الحديد».
ولورأيتمـونى الآن لعرفتم انى عـاقل.. عاقل جـدا.. وربما لاحظتم انى اتكلم كثيرا.. انى ثرثار.
هل تعتبرون هذا نوعا من الجنون؟!
إذن.. فكل الحلاقين مجانين!!

●●●



المقامر



أنا مقامر ..

مقامر محترف..

وقد بـدأت أقامر وأنا فى الســادسة عشرة من عمرى.. وكنت ايـامها أقيم مع أمـى واخوتى، فى الـدقى، والتف حولى بعـض الشبان من سكـان العمارة، وعلمونى لعبة «السبعة ونص» ثم لعبة «٢١».. وكنا نلعب بقـروش قليلة.. وربحت.. لا أدرى كيف ربحت.. ولكنى كنت أربح بـاستمرار.. وشجعنى الـربح على أن ألعب بمبلغ أكبر.. وانتقلت من على المائدة التى يلتف حـولها سكـان العمارة.. إلى مـوائد أكبر، تعقـد فى بيـوت أولاد الـذوات.. وأصبحت وأنـا فى الثـامنـة عشرة من عمـرى ألعب البوكـر، والبكاراة، و«البرغـوت» وأكسب أو أخسر خمسين جنيهـا فى دقيقة واحدة دون أن تهتز شعرة من رأسى.. وكنت أربح. أربح باستمرار..

واكتشفت فى نفسى مـواهب المقـامــر.. فأنـا قـوى الأعصـاب، بحيث لا يهزنى مكسب أو خسارة.. وأنـا ذكى قوى الملاحظـة.. والقمار ليس كله مجرد حظ، انه أولاً ذكـاء وقوة ملاحظـة.. ثم انى محبوب من اصـدقائى.. واصـدقـــائى هم كل لاعب قمار، حتى لـو لم أكن اعـرف اسمـه.. فكنت استطيع أن أكسب قلوبهم، واخفف مـن حدة ورهبة الجو الـذى يجثم فوق المائدة، وكنت استطيع فى أى وقت أن أجمع أى عـدد من الـلاعبين.. بل إنى اصبحت اتدلـل على اللاعبين، واختار منهم مـن اقضى معه ليلتى، كـالفتاة الغندورة عندما تختار بين عشاقها..

ولكن.. ربما كان أكبر مـؤهلاتى كمقامر، انى لم أكن أملك شيئـا اخاف عليه.. لم يكـن عندى مال يـأخذه منى غيرى.. لقد بـدأت ألعب عندمـا كنت صغيرا، بخمسـة قـروش اقترضتها من الصـديق الـذى يجلس بجـانبى.. وتعـودت بعـد ذلك أن أبـدأ اللعب وأنـا مفلس، اقترض مـن أى واحـد من الـلاعبين أو من المتفرجين.. أمـا الربح الـذى أجنيه فى آخـر الليل، فلم يكن يبقى فى يدى إلا ريثما تبدأ الليلة التالية.. كنت ابعثر كل ما أربحه بجنون..

كنت كريما منعما.. وكان كل اللاعبين يعلمون عنى هذا.. كانوا يعلمون أنى ألعب للذة اللعب نفسه، لا لأدخر الأربـاح وأكون منها ثروة.. وهذه هى أول شروط المقامر الأصيل..

ومـرت الأيام وأنـا ألعب كل ليلة، وفى الصبـاح أعمل صحفيا فى إحـدى الصحف.. ثم هجرت الصحافة، وتفرغت للقمار.. فلم أكن صحفيا لامعا..

ومع الأيام احترفت القمار..

اصبحت اعقد الموائد لحسابى، واحصل لنفسـى على قيمة «الجانيوتا»..

وكانت الموائد التى اعقدها هـى اغنى الموائد وارقاها.. وزادت ارباحى، وزاد بذخى.. لـو قلت لك انى كنت اكسب فى الشهر الـواحد أكثـر من ألف جنيه، فإنى لا ابـالغ ورغم ذلك كنت دائما مفلســا..أصبح عنـدى سيارة، وشقـة انيقة، وأصبحت أرتـدى أفخر الثياب، ولكنى دائما مفلس.. أبـدأ ليلتى ـ كل ليلة ـ بالاقتراض من أحد اللاعبين أو من أحد المتفرجين..

وكنت سعيدا بحياتى.. لم يكن فيهـا شـىء يقلقنى.. حتى بوليس الآداب الذى يتتبع المقـامـرين لم يكـن يقلقنى أو يخيفنى.. ولم يكن التهـرب من البوليس أمـرا يقضى منى ادنى تفكير، فقد كنت أعلم انه بـوليس أعجز من أن يصل إلى مـوائد القمار.. مستحيل عليـه أن يصـل إليهـا.. فهى تعقـد فى بيـوت لا يمكن أن تثير شبهـة البوليس، أو يخطـر على بـالـه مهاجمتهـا.. ولـو ذكرت لك اسماء العـائلات التى كنت أعقد فى بيـوتها الموائد الخضراء لدهشت.. ورغم ذلك فلم يكن كل اصحاب هذه البيوت من المقـامرين.. إنما كـانـوا يـؤجـرون بيـوتهم للقمار.. كنـت اتفق مع صـاحبـة البيت على أن تستضيفنى أنا وأصدقائى، نظير عشرة جنيهات، وأحيانا يرتفع الايجار إلى خمسين جنيها، حسب قيمة العائلـة، وقيمة اللاعبين.. ولم تكن سيدة البيت ترى فى استضـافتنا مظهرا يجرحها أو يثير حولها الأقاويل، فهى تستضيف ناسـاً محترمين مهذبين، رجالا ونســاء ، وكل ما هنالك انهم يلعبون فى بيتها «كونشينة» للتسلية.. مجرد التسلية !

وهكذا عشت..

مطمئنا بعيدا عن البوليس.. سعيدا..

ولكنى وإن كنت سعيدا بحياتى، فإنى لم أكن فخورا بها.. كان هناك دائما شىء ينقصنى.. صفة استطيع أن أواجه بها الناس.. وكانت الصفة التى اتمنى أن أواجههم بها هى صفة: الأديب!.

من صغرى، وأنا اتمنى أن أكون اديبا.. له كتب، وله مقالات، وله اسم على ألسنة الناس.. وقد اشتغلت فى الصحافة لأكون اديبا.. وفشلت فى الصحافة.. ولكن حلمى ظل يراودنى.. ويلح علىّ.. يجب أن أكون اديبا..

وكنت اقرأ كثيرا.. وكانت أغلب قراءاتى فى الأدب الفرنسى.. وقرأت مرة قصة لمورياك.. قصة شائقة رائعة.. ماذا لو ترجمت هذه القصة، ونشرتها فى كتاب باسمى، وسجلت نفسى فى قائمة الأدباء..

وحاولت أن اتخلص من هذا الحلم..

أهملت قصة مورياك شهورا عديدة.. وأنا أصر على أن اتفرغ لاحتراف القمار، ولحياتى السعيدة.. ولكن القصة كانت تتبعنى.. وتلح علىّ.. وتؤرقنى..

ثم فجأة، فى يوم من الأيام، وجدت نفسى جالسا إلى مكتبى أترجم القصة .. وتحمست فى ترجمتها .. إلى حد أنى أصبحت أغيب ليالى كثيرة عن موائد القمار.. وخسرت أرباحى فى تلك الليالى.. ولكن لا يهم، سأعوض الربح، بعد أن أطبع الكتاب وأبيعه.. وسيكون ربحا لذيذا.. ألذ من ربح القمار..

وانتهيت من إعداد القصة، وكتبت المقدمة والاهداء.. اهديته إلى روح أبى.

كيف أطبعه ؟

لقد كنت أعرف أنه من المستحيل علىّ أن أجد ناشرا يتولى طبع كتابى، فانى لا زلت مجهولا فى عالم الأدب، والناشرون لا يطبعون إلا كتب الأدباء المشهورين.. الكتب المضمونة الربح.. والوسيلة الوحيدة أمامى لنشر كتابى، هى ان أطبعه على حسابى..

وأقدمت على طبعه بروح المقامر.. قررت أن أطبعه على ورق فاخر.. وأن أطبع له غلافا من ورق البريستول الثمين، مطبوع بخمسة ألوان.. وأن أطبع منه خمسة عشر ألف نسخة.. إن مورياك وأنا، نستطيع أن نبيع أكثر من ذلك ..

كم يتكلف المشروع؟!

ستة آلاف جنيه..

ولو

صحيح أنى مفلس.. وقد كنت مفلسا دائما.. ولكن الافلاس ليس معناه أن لا أجد نقودا..

وقررت أن استدين .. إن اصدقائى كثيرون، وكلهم يرحبون بالإقراض.. ولكن الاقتراض للعب القمار، غير الاقتراض لمشروع ادبى حتى. إن دين القمار دين شرف، والمقرض يفترض فيك الشرف.. ولكن الاقتراض لطبع كتاب دين تجارى.. والتجار لا يفترضون الشرف فى أحد!!

وعلى غير عادتى.. اقترضت، وكتبت نظير القروض التى حصلت عليها، شيكات مؤجلة.. شيكات لا يقابلها رصيد.. ولم اقترض من واحد فقط.. بل اقترضت من ثلاثة، كتبت لكل منهم شيكا.. وكتبت شيكا رابعا لصاحب المطبعة..

وتم طبع الكتاب..

خرج انيقا لامعا.. رائعا.. يحمل اسمى !

وأعلنت عنه فى الصحف..

وطرحته فى السوق..

وأنا أدور على الباعة والمكتبات، وأنظر إلى الكتاب الذى يحمل اسمى، وابتسم فخورا بنفسى.. لقد أصبح لى اخيرا صفة استطيع أن أواجه بها الناس..

ومرت الأيام..

شهر.. شهرين.. ثلاثة..

أتدرى كم نسخة بيعت من الكتاب.. أربعمائة نسخة.. أربعمائة من خمسة عشر ألف نسخة..

وبدا اصحاب الديون يجرون ورائى..

وعدت إلى موائد القمار، لعلى استطيع أن اسدد ديونى من أرباحى..

وأبدو أن الحزازة التى تركها فشل الكتاب، ومشاكل الديون التى

تلاحقنى.. كـل ذلك قد اثر فى صفـاء ذهنى، وفى قوة مـلاحظتى ،فأصبحت اخسر على مـوائد القمار.. واخسر.. واخسر.. ثم اصبحت افقـد اعصـابى، وأصبح اللاعبون يضيقون بى، ويهربون منى..

ويئس الدائنون منى..

ولم يرحمونى..

باعوا سيارتى، واثاث بيتى، وثيابى..

ثم ..

قدموا الشيكات التى فى ايديهم إلى النيابـة.. شيكات بلا رصيد.. وقدمت للمحاكمة.. وحكم علىّ بالحبس ثلاثة شـهور..

وأكثر ما يضايقنى أن الناس تعتقد أنى سجنت كمقامر، لا كأديب!!



الضيـــاع



كل الذين يعرفونني يقولون عنى إنى إنسانة شاذة.. مجنونة.. وبعضهم يهز رأسه فى أسى، ويقول.. مسكينة !

وقد أكون فعلا شاذة ومجنونة ومسكينة، ولكن ما أحس به هو أنى بائسة.. حائرة.. أفكارى تعذبنى.. وعذابى لا يستقر.. ليس هناك شىء معين يعذبنى ، إنما كل شىء يعذبنى.. العذاب أينما اتجهت.. أتعذب بالخطيئة، وأتعذب بالفضيلة.. أتعذب عندما أحب، وأتعذب عندما أكره.. أتعذب عندما اسكن وأتعذب عندما أتحرك.. لا.. ليس فى حياتى خطيئة ولا فضيلة.. ولا حب ولا كراهية.. ولا سكون ولا حركة.. ليس فى حياتى حدود بين شىء وآخر.. بين مبدأ ومبدأ، أو بين عاطفة وأخرى.. إنما كل شىء مختلط بالآخر، متداخل فى الآخر.. كل المبادىء وكل القيم وكل العواطف وكل الأحاسيس، ذابت فى كوب واحد من الماء، يشرب منه عقلى.. فأتعذب، ولأبدأ قصتى من أولها..

كان أبى إنسانا طيبا، متدينا.. بلغ من طيبته وتدينه حد الضعف.. ولكنه كان ذكيا، على الأقل كان يعرف كيف يدير أعماله..

وقد سافر فى شبابه إلى ألمانيا.. والتقى هناك بفتاة كبيرة الحجم.. قوية.. قوية فى جسدها، وقوية فى شخصيتها.. ولا أدرى ماذا جمعهما.. وكيف أحبها وأحبته.. ربما وجد فيها القوة التى تنقصه، ووجدت فيه الضعف الذى ينقصها.. وتزوجا..

واحتفظت هى بدينها، بعد الزواج..

واحتفظ بدينه..

هى مسيحية، وهو مسلم..

وعاد بها إلى القاهرة..

وربما لم تثر مشكلة الدين فى عقليهما يوم تزوجا.. فأبى رغم تدينه، واسع العقل إلى حد لا يمكن أن يقتنع بأن الزواج وحده يمكن أن يكون

سببا كافيا للانتقال من دين لدين.. وأمى لم تكن يهمها أن تتزوج مسلما يؤدى فروض الصلاة، ويصوم رمضان، مادام الزواج لن يحد من حريتها فى الاحتفاظ بدينها وممارسة طقوسه..

ثم ولدت أنا..

وكتبوا فى شهادة ميلادى أن اسمى فاطمة، وأنى مسلمة.. ولكن شهادة الميلاد لم تكن فى نظر أمى أكثر من مجرد اجراء شكلى.. فأسمتنى « مونا».. وبدأت منذ صغرى تلقننى الديانة المسيحية.. بل إنها أخذتنى وعمدتنى فى الكنيسة.. ثم أصبحت أذهب معها إلى الكنيسة فى أيام الآحاد.. ولا أحد يشك فى أنى مسيحية.. ولا أحد يناديني باسم فاطمة، كلهم ينادونى باسم « مونا » حتى أبى.. أبى الصامت المنزوى الذى لا يستطيع أن يعترض على تصرف من تصرفات أمى !.

وتفتح وعيى على وضع عجيب أعيش فيه :

أنا مسلمة، وأذهب إلى الكنيسة..

واسمى فاطمة، وينادوننى مونا..

وأمى تسجد أمام الصليب، وأبى يتجه إلى الكعبة

وبدأت أفكر..

وبدأت أحاول أن أقنع نفسى بأنى مسيحية كما تريدنى أمى.. التى احبها.. ولكنى لم استطع الاقتناع، وأنا أرى أبى يصلى أمامى خمس مرات فى اليوم.. أبى الذى أحبه..

ثم حاولت أن أقنع نفسى بأنى مسلمة كأبى، وكما هو مكتوب فى شهادة ميلادى.. ولكنى لم استطع الاقتناع، وأنا أرى أمى تعلق فوق قلبها صليبا ذهبيا جميلا..

واقلقتنى حيرتى..

بدأ العذاب..

وذهبت إلى أبى أسأله :

— لماذا لا تذهب إلى الكنيسة يا أبى ؟

واحتضننى أبى فى حنان وقبلنى، وقال فى بساطة :

— الكنيسة والجامع كلاهما بيت من بيوت الله.. ولو ذهبت إلى الجامع ، فهذا يغنينى عن الكنيسة.. وكذلك أمك، ما دامت تذهب إلى الكنيسة ، فهذا يغنيها عن الجامع..

ولم أقتنع..

وذهبت إلى أمى أسألها :

— لماذا لا تصلين كما يصلى أبى ؟

وقالت وهى تربت على ظهرى :

— كلانا يتوجه إلى الله.. وإن اختلفت الطرق !

ولم أقتنع ..

لم اقتنع بقول أبى، ولا بقول أمى.. إذا كان ما يقولان صحيحا، فلماذا لا يجتمعان فى بيت واحد من بيوت الله، ويصليان صلاة واحدة.. ويريحانى!

واستبدت بى الحيرة أكثر..

اشتد العذاب..

عذاب فكرى، وعذاب أحاسيسى..

ثم حاولت محاولة أخرى، لعلها تريحنى من العذاب..

ذهبت إلى أبى، وقلت له :

— هل استطيع أن أصلى صلاتك ؟

وابتسم أبى الطيب، وأجاب :

— ولم لا .. تعالى !

وأخذ يعلمنى صلاته.. وصليت معه .. وأمى لم تعترض، فقد كانت تعلم أن هذه هى رغبتى.. وربما اعتقدت أنى كنت ألهو.. مجرد لهو.. ولكنها كانت تتعمد أن تخرج بى من البيت فى الأوقات التى يصلى فيها أبى، أو تشغلنى عنه بشىء من أعمال البيت..

ورغم ذلك فقد أصبحت أصلى مع أبى.. ثم فى المساء قبل أن أنام أصلى أمام أمى الصلاة التى علمتها لى.. و.. وأذهب معها إلى الكنيسة كل يوم أحد.

ولكن الحمل كان ثقيلا علىَّ ..

لم استطع أن أحمل عبء دينين ، ونبيين ، وصلاتين .. فلم أعد أصلى مع أبى..

وكبرت حيرتى..

وزاد عذابى أكثر..

وعندما وصلت الى الثانية عشرة، قادتنى حيرتى إلى الكفر.. الكفر بدين أمى، ودين أبى.. ربما لم أتنبه إلى أنى كفرت بالدين نفسه، إنما كفرت بالطقوس الدينية.. لم أعد أُومن بكلام القسيس.. كيف أُومن به، وهو كلام لا يقنع أبى..

ولم أعد اهتز لسماع صوت المؤذن.. كيف اهتز له، وصوته لا يصل إلى أذنى أمى..

وعندما وصلت إلى هذا الحد بدأ كل شىء سمعته من أمى فى طفولتى يبدو سخيفا.. هذه القصص الدينية الساذجة التى تدور حول الملائكة ومعجزات الأنبياء.. وهذه الوصايا التى ترسم صور الفضيلة، والحب.. و.. والجنة والنار .. و.. و.. كل ذلك بدأ يتبخر من رأسى ومن إحساسى..

وأصبحت ألعب..

ألعب بعنف..

ولم أكن أريد اللعب ، لمجرد اللعب، ولكنى كنت أريده لأشغل به نفسى عن حيرتى.. عن الضياع الذي أحس به.. وكلما اشتدت حيرتى، واتسع الضياع من حولى، أصبحت فى حاجة إلى لعب أعنف..

وبدأوا يقولون عنى إنى شاذة، ومجنونة..

وكبرت..

وتغير نوع اللعب..

أصبح انحلالا..

وقد كنت فى الرابعة عشرة من عمرى عندما عرفت أول شاب.. لم أعرفه لأنى أحببته.. ولكنى فقط كنت أريد أن ألعب.. وانسقت معه إلى آخر الطريق، لأنى كنت أريد مزيدا من اللعب.. ثم لم يعد شابا واحدا.. أصبحوا كثيرا من الشباب كلهم أدوات للعب.. اللعب العنيف الصاخب..

وكنت فى الخامسة عشرة من عمرى عندما شربت أول كأس، وتبعه كثير

من الكؤوس.. أصبحت أرتاح وأنا سكرانة.. ان اللعب يبدو أيسر وأهون، وأنا سكرانة..

وعشت هذه الحياة.. بلا قيم.. وبلا مبادىء.. وبلا حب أو كراهية.. من أين آتى بهذه القيم والمبادىء ، وأمى لا تؤمن بما يؤمن به أبى، وأبى لا يؤمن بما تؤمن به أمى .. وأنا لا أومن بما يؤمن به كلاهما..

وضِعْتُ..

إنى وحدى.. لا أحد بجانبى.. الشاب الذى يعرفنى، لا يلبث سوى ساعة، ثم أفقد إحساسى به.. لا يهمنى إن بقى، أو ذهب.. فهناك دائما غيره.. وكلهم واحد.. والليل لا يترك لى ذكرى.. ينتهى مع الفجر.. ليأتى ليل آخر.. وكل الكؤوس كأس واحد..

وتأكد الناس أنى مجنونة..

وربما كنت فعلا مجنونة.. ولكن فى داخل هذه المجنونة، كانت هناك إنسانة أخرى، تتعذب، وترقب تصرفات المجنونة، فتزداد عذابا.. وتتلفت إلى الأب والأم، فلا تجد منهما العون.. لا تجد منهما إلا عذابهما بالمجنونة..

ثم ..

حدث شىء عجيب.. تقدم رجل ليتزوجنى.. ولا أدرى لماذا أراد أن يتزوجنى.. لم أكن أحبه ولم أكن أكرهه.. إنه واحد آخر.. وقد قبلت لأنه كان كأبى.. ضعيفا كأبى.. منطويا كأبى.. يخضع لنزواتى، كما يخضع أبى لشخصية أمى.. وكان مسلما كأبى..

وتمنيت أن يريحنى الزواج..

وقضيت أياما وأنا أحاول أن أمثل دور الزوجة.. ولكنى لم أستطع أن أستمر طويلا.. ربما لأنى لم أكن أعرف ما هى الزوجة..

وعدت مجنونة..

وزوجى صامت صابر..

ثم عرفت عبدالرحمن.. وكان نوعا آخر من الرجال غير زوجى.. وغير أبى.. كان شخصية عارمة.. وقوة آمرة.. كنت أستطيع أن أشم رائحة قوته وأنا بعيدة عنه بأميال..

وربما أحبنى عبدالرحمن..

نعم.. لقد أحبنى !

واستسلمت له فى أول الأمر لأنى مجنونة.. ولكننى بدأت أدمن الاستسلام له.. بدأ يغنينى عن كل الرجال.. وبدأ يحفر فى نفسى ليعرف سر تصرفاتى المجنونة.. وربما عرفها.. فقد بدأ يلقننى مبادئه.. وبدأ يغرينى على الاقتناع بهذه المبادىء.. بدأت أصوم معه رمضان.. وبدأت أفكر فى الجنة والنار.. وبدأت أهدأ.. وأرتاح..

وقرر عبدالرحمن أن يتزوجنى..

وتنبهت.. إنى لم أفكر من قبل فى الزواج به.. كان يكفينى أن أكون معه بلا زواج..

ولكن عبدالرحمن مصمم..

لا أدرى لماذا صمم..

واتفقنا على يوم نسافر فيه سويا إلى الاسكندرية، ومن هنا أرسل إلى زوجى ليطلقنى، وأتزوج عبدالرحمن..

وجمعت ثيابى فى حقيبة.. وركبت سيارة أجرة، وأمرت السائق أن يتجه بى إلى المحطة، حيث ينتظرنى عبدالرحمن..وطوال الطريق ودوى كالحفيف يملأ رأسى.. وشىء كالغيظ ينبعث من نفسى.. الغيظ من ماذا.. لا أدرى. ولكنى مغتاظة، ثائرة.. والغيظ يشتد، والثورة تحرقنى..

ثم فجأة صرخت فى السائق :

— عد بى..

وعاد بى.. ودخلت إلى بيتى.. بيت زوجى.. وأخذت أحطم الأوانى .. وأقلب المقاعد.. وحاول زوجى أن يقترب منى، فقذفته بمقعد وشججت رأسه..

ونقلونى إلى المستشفى.. مستشفى الأمراض العصبية..

وخرجت بعد أن هدأت..

ولكن الناس تعلم أنى لا زلت مجنونة.. وقد أكون مجنونة.. ولكن فى داخلى إنسانة ترقب تصرفات هذه المجنونة.

وتتعذب !



القاع



انا دكتور فى علم الاجتماع ..
أتدرى ماذا يعنى هذا ؟
يعنى ان فى رأسى صورة واضحة لمجتمع سليم.. فاضل.. متكامل.. ويعنى أيضا انى انظر إلى مجتمعنا الذى نعيش فيه.. باحتقار شديد!

إن كل فرد فى هذا المجتمع، إنسان ضائع، شقى، جاهل بنفسه وبمن حوله..

وكل عائلة هى مجموعة من هؤلاء الأفراد الضائعين الاشقياء الجهلة.. عائلة ممزقة، متآكلة الأخلاق والمبادىء..

وكل مدينة هى مجموعة من هذه العائلات الممزقة المتآكلة.. مدينة تائهة وسط ضباب كثيف من الجهل والانحلال.. الناس فى الشوارع تائهون.. والناس الجالسون على المقاهى تائهون.. والناس فى بيوتهم تائهون.. والذين يعظون الناس، هم أيضا تائهون..

وانا وحدى الذى يشعر بكل هذا الانهيار فى مجتمعنا.. فانا كما قلت لك، دكتور فى علم الاجتماع؟!

إن الدكتوراه التى احملها هى بمثابة مصباح أسلطه على ما حولى ومن حولى.. فأرى.. أرى فى صدر كل فرد أمر به، نفسا منهارة.. وأرفع عينى إلى أى نافذة أرى خلفها عائلة منهارة..

ماذا أفعل لهذا المجتمع المنهار؟

لا يكفى ان أقف فى قاعات المحاضرات وألقى على الطلبة فيها من نور مصباحى.. من نور الدكتوراه.. لا يكفى.. خصوصا وأنى أشعر أحيانا بأن الطلبة والطالبات يبادلوننى الاحتقار.. انهم ينظرون إلى شعرى المنكوش فيسخرون منى، لأنهم لا يرون الكنز المختبىء تحت هذا الشعر المنكوش.. كنز المعرفة.. والطالبات المائعات يتضاحكن ساخرات كلما مررت بهن، ربما لأن بنطلونى لا يعجبهن.. والرجال عندهن ليسوا سوى بنطلونات!!

إنهم يبادلوننى الاحتقار.. هذا صحيح.. ولكنه لا يهم.. فالانسان يحتقر الحمار دون أن يدرى أن الحمار يبادله الاحتقار.. والحمار هنا ليس انا.. انا الانسان.. الانسان الذى يحمل النور والعلم.. والدكتوراه!

المهم هو انه يجب ان أفعل شيئا لهذا المجتمع المنهار.. أن أؤدى واجبى نحوه..

والشىء الوحيد الذى أستطيع أن أفعله ، هو أن أبنى بنفسى المجتمع المثالى الذى أحتفظ بصورته تحت شعرى المنكوش.. حتى أخرج هذه الصورة إلى الوجود..

ولكى أبنى هذا المجتمع كان يجب أن أتزوج، حتى أكوّن عائلة مثالية، تكون نواة للمجتمع المثالى، ومثلا لما يجب أن تكون عليه العائلات.

والخطوة الأولى فى الزواج، هى أن أختار زوجتى.. الزوجة التى تصلح لأبنى بها مجتمعا مثاليا..

وبدأت أضع بحثا علميا عن الشروط التى يجب أن تتوافر فى الزوجة المثالية، داخل المجتمع المثالى..

وكان من بين هذه الشروط:

العـــلم ..

فالمجتمع الجديد لايمكن أن تبنيه امرأة تجيد الطهو، وترتق الجوارب، وتغسل القمصان والجلاليب.. لا.. لايكفى هذا.. بل يجب أن تكون امرأة مثقفة، تعينها ثقافتها على أن تحدد الهدف الذى تسعى إليه.. أن تحدد الشكل النهائى للمجتمع الذى تساهم فى بنائه.. ثم لاتنسى أنى مثقف.. احمل شهادة الدكتوراه.. ولن تفهمنى إلا امرأة مثقفة.. ولا أطمع فى أن تكون فى درجة ثقافتى.. إنى أعلم أن هذا مستحيل.. ولكن على الاقل، يكون لها واحد على ألف من ثقافتى..

الفضـــيلة ..

واريدها امرأة فاضلة.. امرأة لها تجارب ذهنية، وليس لها تجارب خلقية.. أو جسدية.. وهناك بعض الفلاسفة يعتقدون أن المرأة المجربة اقدر على إسعاد الرجل. ولكنهم يخطئون فى تحديد معنى التجربة..

والتجـربـة ليس معنـاهـا أن تتنقـل المرأة من رجل إلى رجل بجسـدهـا أو بعواطفها.. ولكن التجربة هنـا يجب أن تقتصر على التجربة الذهنية.. أى ان تتنقل بـذهنهـا من فــكـرة إلى فكـرة ، ومن مبـدأ اجتماعى إلى مبـدأ آخـر.. وهـكذا..

الصــحة ..

والصحة هى أعلى مراحل الجمال.. إن المرأة التى تتميز بالصحة والقوة هى امـرأة جميلة.. قـادرة على إنجـاب أولاد أصحـاء.. وقـادرة على احتمال مشاق بناء مجتمعها.. وقادرة على إسعاد زوجها.. وأنا لا اتصور أن أتزوج امـرأة ثم أقضى عمـرى أصحبهـــا إلى الأطبـاء لعـلاج كبـدهـا وطحـالها ومعدتها.. واسلمها لجراح يشوه جسدهـا ليخرج منه المصران الأعور.. لا.. أريـدها صحيحـة، سليمة، تـرقص العـافية على وجنتيهـا.. وقد تقـول أن «الصحة» شرط يشـترطـه رجل يشترى جاموسـة لا رجل يبحث عن زوجة.. ولكن كن واقعيا يـاصديقى.. ان الفـرق الوحيد بين الجامـوسة والمرأة.. ان إحداهما لها عقل..

الجمـــال ..

وأنـا اوافقك على أن جمال الصحة لايكفى لـوحـده.. ان هناك تفـاصيل أخـرى يجب أن تتـوفـر حتى يستكمـل الجمال عنـاصره وقـد انتهيت من تحديـد هذه التفـاصيل.. إنى أريـد زوجتى امـرأة طويلـة.. مليئـة.. ليست سمينة، ولكن مليئة.. وعيناها واسعتان.. وفمها مكتنز.. وصدرها عريض.. و.. تفـاصيل كثيرة استغـرقت من البحـث الـذى اعـددتـه أربع صفحـات فولسكاب!

مستوى الدخل ..

هل تظن أنى أبحث عـن زوجـة غنيـة.. صحيح.. إنى أبحث عن زوجـة غنيـة.. هل يعنى هـذا أنى طماع.. أو أنى مـادى.. أبدا.. أنـا رجل صـاحب مشروع.. مشروع اجتماعى ضخم.. ويجب أن أدبـر ميزانيـة هذا المشروع قبل أن أقدم عليه.. وإذا كنت قد قررت أن أضع كل ما أملكه فى المشروع فإن مـا أملكـه لايكفى.. ويجب أن يسـاهـم معى شريكى.. ولا تكفى مسـاهمة

الشريك بمجهوده، بل يسـاهم أيضا بماله.. أى يجب أن يكون عنـده مال.. وقـــد حددت مستوى دخل المرأة التى اتزوجها.. وضعت حدًّا أعلى، وحدًّا أدنى.. الحد الاعلى، مـائة فدان.. لا أكثر.. والحد الأدنـى، خمسون فـدانا.. لا أقل..

ثم..

الحـــب ..

نعم.. الحب.. إنه شرط أساسى!.

إن مجتمعـا لايقوم على الحب، لايمكن أن يسمى مجتمعـا.. قد تسميـه «سوق».. ولكن لايمكن أن أسميـه مجتمعـا.. ثم انى لا أستطيع أن أثق فى امرأة تتحمل شعـرى المنكوش، وبنطلـونى المكـرمش، وتتحمل شطحـات عبقريتى، وتتحمل معى عـبء المهمة الخطيرة فى بناء مجتمع جـديد.. إلا إذا أحبتنى.. أحبت شعرى، وبنطلونى، وآمنت بعبقريتى..

و..

وشروط أخـرى كثيرة ضمنتهـا بحثى العلمى عن الـزوجـة المثـاليـة.. وحملت هذا البحث ودرت أبحث..

بحثت طويلا..

ولا امل..

كنت أجد بنـاتاً تتـوفر فيهن تسعـون فى المائة من هذه الشروط وبنـاتاً تتوفر فيهن خمسة وتسعـون فى المائة من الشروط.. ولكننى كنت مصمما على الا اتنـــازل عـن شرط واحـــد.. ولا نصف شرط.. يجب أن تكتمـل كل الشروط.. مائة فى المائة من الشروط!

ولم تكن المشكلة هى ان أجد البنت التى تـرضى بى زوجا كما قد يخيل إليك.. أبـدا.. ان كل البنـات وكل العـائلات يـرحبـون بى.. فأنـا أستـاذ فى الجامعـة.. وأنـا دكتـور.. وهـذا يكفـى لتتشرف أى بنت بـزواجى.. ولكن المشكلة.. كما قلت لك.. كانت مشكلة استكمال الشروط.. كل الشروط..

واصبحت فى السادسة والثلاثين من عمرى، ولم أتزوج.

وقد تسألنى كيف عشت هذا العمـر الطويل بلا زواج.. ولعلك تقصد أن تسألنى، كيف عشت هـذا العمـر بـــلا امـرأة.. كيف احتملت الكبت.. كبت

رجولتى.. فحولتى.. أعصابى.

لا ياصديقى.. أنا لم أشكُ الكبت فى حياتى.. فأنا أومن ـ ولاتنس أنى عالم من علماء الاجتماع ـ بأن كل انسان يعانى فائضا من حيوانيته يجب أن يتخلص منه، حتى يريح أعصابه ويجدد قوته.. تماما كما تتخلص من زيت السيارة القديم لتضع مكانه زيتا جديدا، ينعش الموتور، ويحافظ على سلامته.

وهناك نوع من النساء متخصص فى نزح هذا الفائض الحيوانى.. تماما كما تتخصص طائفة الزبالين فى نزح فضلات البيت.

وكل مجتمع من المجتمعات الحديثة فى حاجة إلى هذا النوع من النساء حاجته إلى الزبالين.. فمشاكل المجتمعات الحديثة يتسبب عنها كثير من الفضلات، التى تقتضى تخصص بعض الطوائف فى نزحها..

إنها نظرية علمية محضة.

وقد آمنت بهذه النظرية، وطبقتها فى حياتى.. بل رتبت ميزانيتى على أساسها.. كنت أخصص فى ميزانيتى خمسة وعشرين قرشا أعطيها للزبال نظير أن يخلصنى من فضلات الطعام، وأخصص عشرة جنيهات أعطيها لهذا النوع من النساء ليخلصننى من فضلات رجولتى..

وهكذا عشت.

وهكذا استطعت أن أبحث عن الزوجة المثالية فى هدوء، وتروٍّ، ودون عجلة.. وفى يدى قائمة الشروط.

ثم..

عرضت علىَّ وظيفة فى إحدى البلاد العربية البعيدة.. وقبلتها.. فالمرتب مغر.. وأنا فى حاجة إلى أن أدخر مزيدا من المال، حتى أحقق مشروع بناء المجتمع الجديد، على مستوى أرقى.

وسافرت.

إن المجتمع هناك متأخر.. متأخر جدا.. وقضيت أسبوعا وأسبوعين، وأنا أدرس حال هذا المجتمع المتأخر

واكتشفت فى الأسبوع الثالث أنه ليس فى هذا المجتمع، هذه الطائفة من

النساء اللاتى تخصصن فى نزح فضلات الرجال.. الرجال هناك، لايعانون من مشكلة الفضلات.. لأنهم يتزوجون بلا شروط..

ولكنى لست متزوجا.

ولن أتزوج إلا على أساس شروط تحقق المجتمع المثالى.

واحتملت..

احتملت قسوة الكبت لأول مرة.. وتعذبت.. تعذبت كثيرا.. وطال عذابى شهرا.. شهرين.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة.. ستة..

ثم لم أعد أطيق!

أخذت أجازة من عملى مدتها أسبوع واحد، وعدت إلى القاهرة..

وفى خلال ثلاثة أيام.. كنت متزوجا..

ورجعت بزوجتى إلى مقر عملى..

ولاتسألنى عن الشروط..

ليس فى زوجتى شرط واحد من هذه الشروط..

فإنى لم أبحث عن زوجة..

ولكنى بحثت عن امرأة..

امرأة تنزح فضلات الرجال..

•••

(**ملحوظة**) : البحث العلمى عن الزوجة المثالية ، تحت أمرك .. وقد ترى انه يصلح للنشر..



المسيح في دشنا



منذ خمسة عشر عاما فقط كنت انسانا آخر غير الإنسان الذى ترونه الآن..

كنت شابا مليئا بالحياة.. بالحماس.. بالأمل.. وكنت من زعماء الطلبة فى كلية الحقوق.. وعضوا فى مجلس اتحاد الجامعة، وكنت عنيفا.. كانت نشأتى الصعيدية، وحياتى التى قضيتها فى بلدتنا.. دشنا.. قد اكسبتنى فحولة وقوة وعنادا، لا تتوفر فى الشباب القاهرى.. وكان زملائى الطلبة يحبوننى، ويخافوننى ويحتمون بى، بقوتى وشهامتى.. وكانت الطالبات يعجبن بى، ويتلقفن لهجتى الصعيدية بقلوب خافقة، ولكنى كنت أتعمد الابتعاد عنهن، وأعاملهن بكثير من التعالى الذى لايخلو من احتقار.. فان عقليتى لم تكن تهضم مبدأ التحاق البنات بالجامعة.. ان البنات فى بلدتنا يحجزن فى البيوت عندما يصلن إلى سن العاشرة، فكيف أحتمل بنتا تخالط الشبان فى الجامعة، وتسير بينهن مكشوفة الوجه والذراعين..

وفى عام ١٩٤٤ نلت ليسانس الحقوق.. وعدت إلى دشنا وأنا أكاد أرى حياتى مرسومة خلال العشرين سنة القادمة.. سأقيم فى بيتنا هناك.. وسأتزوج ابنة عمى.. وسأعيش على دخل خمسين فدانا ورثتها عن أبى.. وسأفتتح مكتبا للمحاماة وسأكسب من المحاماة.. يكفى ان أتولى قضايا عائلتنا الكبيرة.. عائلة عسران، التى يوازى تعداد أفرادها نصف تعداد البلد تقريبا!

ولم يكن شىء قد تغير فىَّ بعد أن عدت من القاهرة، إلا ان عقليتى أصبحت أوسع أفقا، وأصبحت أكثر تساهلا فى تقاليد الصعيد.. لا التقاليد الخاصة بمعاملة المرأة.. بل التقاليد الخاصة بمعاملة الرجال بعضهم لبعض، والعائلات بعضها لبعض..

وسارت حياتى كما تصورتها..

تزوجت ابنة عمى، ورزقت منها بولدين خلال عامين..

وافتتحت مكتبى.. ونجحت.. وفى فترة قصيرة اكتسبت ثقة أهل البلدة، بما فيهم أفراد العائلة المنافسة لنا، عائلة فرغلى!

ومعظم قضايا دشنا قضايا جنائية.. من النادر أن تجد خلافا مدنيا حول ملكية أرض، أو حول إرث.. ولكن، فى كل يوم تجد قضية قتل.. أو ضرب أفضى إلى موت.. أو إحداث عاهة مستديمة.. أو.. أو..

ولم يكن القتلة دائما مجرمين، إنهم غالبا من أكرم العائلات.. ومن أطيب الناس.. ولكنها تقاليدنا.. تقاليد دشنا.. التى تجعل من القتل نوعا من الاعتداد بالنفس.. والقتل يعقبه الثأر.. والثأر يعقبه ثأر.. وكلما وقع قتيل، دق القاتل على بابى.. ودفع الاتعاب!

إلى أن حدث الحادث الذى غير مجرى حياتى..

أقيم فى البلدة حفل قران أحد أبنائها.. وأراد أحد أفراد عائلة فرغلى - وهو أحمد أحمد عبد الله فرغلى - أن يحيى العريس، فأطلق عيارا ناريا فى الهواء.. وأصابت الرصاصة أحد أبناء عمومتى، فسقط مضرجا بدمائه، وبعد يومين مات!

وقبل أن توارى الجثة التراب ، اجتمع شيوخ عائلتى وشبابها برئاسة عمى حمد «بك» عسران، ليقرروا أمرا.. ولم أدع أنا إلى هذا الاجتماع، فقد كنت معتبرا بينهم قاهريا، وكانوا يلقبوننى بلقب «الأستاذ» ينطقونها كأنهم يلقبوننى بلقب «خواجة».. كأنى لم أعد منهم..

ولكنى حضرت هذا الاجتماع مصادفة.. وسمعتهم يتناقشون فى الثأر.. وفى دقائق معدودة قرروا قتل أحمد أحمد عبد الله فرغلى، الذى أطلق العيار النارى.

وقمت مذعورا لهذه البساطة التى اتخذ بها القرار الخطير..

وقلت:

- الثأر هنا ليس له محل.. فالقتل وقع خطأ!

ونظروا إلىَّ باشمئزاز واحتقار، وسكتوا طويلا، إلى ان قال عمى:

- القتل لايكون أبدا خطأ يابنى، وربما نسيت مابيننا وبين عائلة فرغلى من حزازات، وانى لأعجب من خطأ لايصيب إلا ابنا من أبنائنا..

قلت فى حماس:

— لنترك الأمر للقضاء..

وبصق ثلاثة من الجالسين على الارض، والتفت عمى إلى جاره، وأخذ يحادثه كأنه لم يسمع كلامى.. فعدت أقول:

— لنترك الامر للقضاء..

والتفت إلىّ عمى فى حدة، وقال كأنه يصفعنى :

— اخرس.. أتلجأ للقضاء فى حقنا.. هل انعدم من بيننا الرجال، ثم ياحضرة الأستاذ ماذا سيفعل القضاء.. إن أعداءنا سيقدمون له واحداً من خدمهم ليعترف بأنه هو الذى أطلق الرصاصة، فيحكم عليه القاضى بسبع سنوات، ويضيع دمنا هدرا..

وهممت ان اتكلم، فإذا بعمى يصرخ فى وجهى :

— اخرج من هنا، لم يدعك أحد إلى هذا الاجتماع، هذا اجتماع رجال!

وخرجت ..

ولم ينقض شهران حتى سقط أحمد أحمد عبد الله فرغلى قتيلا، برصاصة أطلقت عليه من بين أعواد القصب..

ورفضت عائلة فرغلى أن تدل على القاتل.. كنا كلنا نعرفه.. وكلنا سكتنا.. حتى أنا..

ولم ينقض عام، حتى سقط ابن عمى قتيلا..

وبعد شهور سقط ابن عميد عائلة فرغلى قتيلا..

وأعلنت عائلة فرغلى انها ستأخذ بثأرها من دم عميد عائلتنا، أى من دم عمى حمد «بك» عمران..

ولم يهتز عمى.. ولم يبد عليه خوف.. كل ما هنالك أنه لم يعد يخرج كثيرا من الحى الذى تقع فيه بيوتنا.. وإذا خرج احاطه حرس كبير مدجج بالسلاح .. ومر عام ، وعامان .. وخيل إلىّ ان كل شىء قد هدأ، وان عائلة فرغلى قد تنازلت عن ثأرها.. ومكتبى يستقبل مزيدا من القضايا.. وكلما وقع قتيل، دق القاتل بابى، ودفع الاتعاب..

وأنا سعيد، منعم بين زوجتى وأولادى ، وندوات البلدة..

ثم سافر عمى إلى القاهرة فى بعض شأنه، وسافر معه اثنان من الخفراء مدججين بالسلاح..

وفى أثناء عودته إلى البلدة، وبينما هو يستعد للنوم فى عربة النوم الملحقة بالقطار.. فتح باب العربة، وأطلقت عليه رصاصة وسقط قتيلا..

ورفض أبناء عمى ان يعترفوا على القاتل..

وشيعت الجنازة بلا احتفال..

وبعد مرور ثلاث سنوات، أقيم الاحتفال بوفاة عمى.. وبدأنا نستقبل المعزين، فقد كان عميد عائلة فرغلى قد سقط قتيلا!!

وجاء الدور على عائلتنا..

يجب ان يقتل واحد منا..

وعرفنا اسم الشخص الذى تطالب عائلة فرغلى بدمه..

إنه أنا!!

أنا.. فقد أصبحت بعد وفاة عمى كبير العائلة، وألمع أفرادها..

ولم أشعر بالخوف، ولكننى لم أطق فكرة أن أقتل، لمجرد انى حلقة فى سلسلة لاتنتهى من تبادل النار.. يجب أن تقطع هذه السلسلة، وهى ستقطع يوما ، فمن الخير ان تقطع الآن.. قبل ان أقتل..

وبدأت الاتصال سرا بعائلة فرغلى عن طريق وكيل مكتبى..

عرضت عليهم الدية..

فلم يقبلوها.. ان الدية تعتبر إهانة لهم، فحياة عميدهم لا يعوضها مال.. لا يعوضها إلا حياتى!.

ولكننى لم اكف عن السعى.. عرضت عليهم كل سبل الترضية وخاطبت المنافذ الضيقة التى تصل إلى عقولهم، والتى قد استطيع منها اقناعهم بأن الموضوع ليس موضوع حياتى وحدها.. ولكن حياتهم أيضا.. حياة كل افراد عائلتهم، وكل أفراد عائلتنا..

وأخيرا قبلوا ان يتنازلوا عن الثأر، إذا أديت الطقوس المتبعة فى بلدتنا عند طلب التنازل عن الثأر..

أتدرون ما هى هذه الطقوس؟

أن أخرج من بيتنا وكفنى فوق رأسى، وأسير فى الشارع وحولى أفراد من عائلتنا، حتى أصل إلى بيت فرغلى.. وأضع نفسى تحت تصرفهم.. وكفنى فوق رأسى.. ولهم ساعتها ان يقرروا ما شاءوا فى مصيرى..

وكان هذا هو الأمل الوحيد..

هؤلاء الأغبياء.. ماذا ينقص أو يزيد لو اتبعت هذه الطقوس البدائية لأنقذ حياتى، وحياة من بعدى، وأعيد إلى البلدة هدوءها وأمنها..

ان المسألة تحتاج إلى شجاعة.. شجاعة القفز فوق تقاليد عاشت فى بلدنا مئات السنين.. وهى شجاعة أكبر مما يحتاج إليها القتل..

وقررت أن أقوم بهذه الطقوس.

ولكن أولاد عمومتى رفضوا أن يصحبونى إلى بيت فرغلى.. وكفنى فوق رأسى.. بل انهم هددونى بأن يقتلونى إذا ذهبت أطلب التنازل عن الثأر.. انهم أغبياء، هم أيضا..

واستطعت أن أجمع بعض أفراد عائلتى الفقراء وأرشوهم بالمال ليصحبونى إلى هناك.. ووضعت كفنى فوق رأسى وخرجت من بيتى وهم حولى، أسير فى شوارع البلدة.. وسكتت البلدة كلها من حولى.. اصطف الناس على الجانبين يشاهدون موكبى فى صمت.. صمت ثقيل مخيف.. لقد خفت ساعتها.. اعترف انى خفت.. وبدأت أحادث نفسى: إنك تقوم بانقاذ دم عائلتين.. انك تحتمل كل ذلك فى سبيل الانسانية.. فى سبيل ان يسود الحب والوئام، انك كالمسيح تتعذب من أجل البشر..

ولكن هاتفا فى نفسى كان لا يكف عن الصياح بأنى لاأفعل كل ذلك إلا إنقاذا لدمى..

ووصلت إلى بيت فرغلى..

ورأيت كل رجال العائلة، وشبابها، وأطفالها، مجتمعين فى فناء الدار فى شبه حلقة، وهم صامتون.. صمت القبر.. ووقفت وسط الفناء، كأنى أقف فى وسط قبرى.. وكفنى فوق رأسى..

وظلوا مبحلقين فى وجهى، ووجوههم تنطق بالاشمئزاز والاحتقار..

وطال وقوفى..

وكفنى فوق رأسى..

ثم.. ثم قال كبيرهم فى اقتضاب كأنه يطلق علىّ رصاصة:

ـ عفونا..

وما كاد ينطق، حتى قام كل الرجال والشبان والأطفال، ودخلوا فى الدار.. وتركونى وحدى فى الفناء..

وكفنى لايزال فوق رأسى..

وخرجت أسير فى خطى مترنحة، وتنبهت، فنزعت الكفن من فوق رأسى، ثم نفضت هذا الوجوم الذى كان مسيطرا علىّ وسرت فى خطى سريعة نشطة..

انتهينا.. لسنا فى حاجة إلى إعادة التفكير فى هذا الموضوع وتستطيع عائلتا عسران وفرغلى بعد ذلك أن يعيشا فى هدوء.

وعدت إلى مكتبى.. وانتظرت وفود الزبائن.. ولم يحضر أحد.. مضى اليوم كله ولم يزرنى زبون، ولا صديق..

لا يهم.. حالة مؤقتة وتنتهى.

وخرجت لأجلس فى المقهى الذى تعودت ان اجلس فيه.. فإذا بالكل ينفضون عنى.. فاذا ما حييت واحدا منهم، رد التحية دون ان ينظر إلىّ، ثم ابتعد عنى كأنى كلب أجرب..

لا يهم.. لا يهم.. غدا يعود كل شىء إلى حاله..

وعدت إلى بيتى.. لا أحد فيه ممن تعودوا أن يقضوا السهرة عندى.. وزوجتى صامتة.. أكثر صمتا من عادتها.. وتعمدت ليلتها أن أنال حق الزوجية، فاستسلمت صامتة.. دون أن تنطق..

و..

وجاء الغد، ولم يعد شىء إلى حاله.. سحب الموكلون قضاياهم من مكتبى وسحب الأصدقاء صداقتهم.. وسحبت العائلة قرابتها.. وهرب الخدم من البيت.. الخدم الذين شبوا فى نعيم أبى ونعيمى، هربوا.. والفلاحون الذين يزرعون أرضى رفضوا أن يزرعوا.. والذى بقى منهم رفض أن يدفع الايجار، فإذا هددتهم، نظروا إلىّ ساخرين.. وأولادى..



فى قريتى

أولادى.. أولادى أنـا ينظـرون إلىّ ويحنـون رؤوسهـم.. واطل عليهم وهم يلعبون فى الفناء، فأجد كلاً منهم يصوب بندقيته إلى الجدار، ويطلقها، وهو يصيح.. مـوت يا فـرغلى.. كأن عائلـة فـرغلى قد قتلتنى، ويعـدون أنفسهم للأخذ بثأرى.

وبلغنى ان أبناء عمومتى يستعدون لقتلى تخلصا من عارى..

وحبست نفسى فى بيتى..

واستعنت على عـذابى بالكـونياك، أشرب.. وأشرب.. أشرب فى الصبـاح، وفى الليل، وأنظر إلى زوجتى وأرى صمتها، فأضربها.. اضربها.. أطلق عليها كل حقــدى وعــذابى.. وأرى أولادى فأضربهم.. أرى أحــدا من الخدم.. فأضربه.. وأنا مخمور.. دائما مخمور..

وجاء ابن عمى لـزيارتى بعد ستـة شهور، ورفضت أن أقابلـه، لا.. إنه سيقتلنى.. انى اعلم انه سيقتلنى..

واقتحم ابن عمى علىّ غرفتى، وخاطبنى كأنـه يحادث كلبا.. هذا الوقح.. ألا يعلم انى أكبر منه سنا.. ألا يعلم انى عميد العائلة..

وقال ابن عمى، وهو يشدنى من ذراعى:

— قـم..

وقمت مستسلما.. وجعلنى أرتـدى ثيـابى، ثم أعـد حقيبـة وضع فيهـا ما أحتاج إليه فى سفر طويل.. وصحبنى إلى المحطة، وأركبنى القطار المتجه إلى القـاهرة، وأفهمنى ان العـائلة قـد عدلت عن قتلى على شرط ألا أعـود إلى البلدة أبدا.. إذا عدت فسأقتل ساعة ان أنزل من القطار..

و..

وأنا الآن فى القاهرة بعيد عن بيتى وأولادى ومكتبى.. وأشرب الكونياك.. أريد أن أعود إلى بلدى.. إلى الاغبياء..



أنـا فـلاح من بلـدة «اصطنها» مـديـريـة المنوفية..

وإذا كنت فـلاحـا، فـلا يعنـى ذلك انى اشتغل بفـلاحـة الارض.. لا.. لقـد تخرجت فى الجامعــة منـذ أربع سنــوات، واشتغلت فى شركة المنسوجـات، وأقيم فى القاهرة.. ولكنى رغم ذلك لا زلت فـلاحـا.. عقلى وقلبى مشـدودان إلى بلـدتى.. ولهجتى وطــريقــة معيشتى لا تزالان كما كنت فى البلدة.. ولا زلت أسافر إلى اصطنها فى كل موسم.. وأرضنـا هناك.. والعمدية لا يزال يتـولاها أحد اعمامى..

وكلما ذهبت إلى بلدتى، داهمتنى ذكريات طفولتى.. وكان أهم ما يشغل طفولتى هو شحاته وزوجته مباركة وابنته منصورة..

وحكاية شحـاته حكاية قد تبـدو غريبة عندما تـروى فى المدينة ولكنها حكاية بسيطة ساذجة من حكايات الريف.

كان شحاتـه فلاحا طويل القـامة، عظامه عـريضة، تبرز من تحت جلد وجهه، وتكاد تراها من تحت جلبابه.. وكان لايبتسم أبدا.. وفى عينيه نظرات مخيفـة، تبـدو نظـرات مصطنعة يتعمـدهـا ليخيف بها من حـولـه، أكثـر مما تبدو نظرات تعبر عن طبيعته..

وكان شحـاته يملك فى زمام البلـدة أربعة قراريط ورثهـا عن جده.. ولم يكن يزرعها.. بل كان يؤجرهـا، ويعمل خفيراً فى السكة الحديدية.. وكان من عادته ان يحدد لنفسه نصيبا فى كل عربة من قطار البضاعة الذى يحرسه.. فيصعد إلى العربة ويلقى منهـا إلى الارض مايستطيع حمله.. دون ان يعرف نوع البضـاعة التى يأخـذها.. قـد تكون صنـدوقا به قطـع من الحديد، أو صفيحة سمن.. أو أى شىء.. كل مايهمه أن يأخذ نصيبه والسلام..

وتكـررت السرقات من عـربـات السكـة الحديد، دون ان ينكشف أمـر شحـاته.. إلى أن صـادفته ذات ليلـة، عربـة محملة بـزجاجـات كبيرة، أى

«جمدانات»، واعتقـد شحاته ان هذه الـزجاجات مليئة بـالعسل الاسود، أو على الاقـل بالسبرتو.. فأخذ لنفسه زجاجتين، وقبل أن يحملهمـا ويبتعـد بهما، فتح إحداهما ليطمئن إلى مـافيها.. ووجـد سائلا لم يستـدل عليه من رائحته، فـرفع الزجـاجة الكبيرة إلى فمـه ليذوق السـائل.. وإذا به يصرخ.. ويصرخ.. حتى أتى إليه الناس..

لقد كان بالزجاجة سائل ماء النار..

وتشوهت شفتا شحاته..

وطرد من السكة الحديد..

واستقر فى البلـدة، وشفتاه المشوهتان، تـدمغانه بالسرقـة.. وبدأ يعمل خفيرا خصوصيا.. ثم بدأ يؤجـر نفسه للقتل.. ويفرض الاتاوات على صغار الفلاحين.. وعرفناه كأحد المجـرمين الخطرين.. ولكن أحدا لم يفكر فى طرده من البلدة، فقد كـان لايرتكب جرائمه إلا بعيدا عنـا، وكان دائما على صلات طيبة بعائلاتنا الكبيرة، يخشاها ويحسب حسابها..

وهذا العملاق كـان يذوب أمام زوجته مباركـة.. كان ضعيفا مستسلما امامها.. وكانت تسبه وتلعنه أمام الناس، فلايجيب عليها إلا بإحناء رأسه..

ورغم ذلك لم تكن مباركـة امرأة قويـة الجسم.. كانت هزيلـة، صغيرة القد، صفراء الوجه.. ولا أدرى سر سيطرتها على شحـاته.. لعله الحب!

وكان من عادة مبـاركة عندما تـذبح بطة، أو فرخة، لتطهـوها وتطعمها اولادهـا.. ان تغلق أبواب البيت، ونـوافذه.. ولاتسمح لأحـد أن يدخل إليهـا أو يطل عليها، فكنا كلما رأينا بيتها مغلقا، نتصايح :

— خالتى مباركة دابحة النهارده.

والأعجب من ذلك ان خـالة مبـاركة لم تكن تطعم زوجهـا شحاتـه مما تـذبحه، أو مـن اللحم الذى تشتريـه فى أيـام السوق.. وكـانت حجتهـا ان شحـاته إذا أكل اللحم ازداد غـروره وتمادى فى إجـرامه، ولـذلك فيجب أن يقتصر طعامه على المش وعيش الاذرة.. واحيانا البصل..

وحـدث مرة ان خـرج شحـاته ليخفـر بعض الاراضى بـالليل، والتقى بذئب، فصوب إليه بندقيته وقتله.. ورأينـاه فى الصباح الباكر عائدا إلى بيته وهو يجر جثة الذئب وراءه..

وفى هذا اليوم، اغلقت مباركة أبواب بيتها ونوافذه وتصايحنا:

— خالة مباركة دابحة ديب النهارده !

وكان أهل بلدتنا يعتقدون ان من يـأكل فخذ الديب اليسرى، يقوى قلبه ويزداد جـرأة.. ولكن يبدو ان خالـة مباركة لم تكتف بأكل فخـذ الديب، بل أكلته كله هى وأولادها..

وحرمت منه شحاته، كالعادة!

واذكر مـرة انى كنت ألعب فى حديقـة دارنا، عندمـا رأيت خالة مبـاركة تتسلل إلى قاعـة الفرن وهى تحمل صينيـة مغطاة بقطعـة قماش.. فجريت وراءها، وسألتها:

—ايه اللى معاكى يا خالة مباركة؟

فاجابتنى وهى تتلفت حولها:

— اسكت.. ودلوقت أديك نايبك!

وبعد ان اطمأنت إلى أن أمى ليست فى قـاعة الفرن .. وأن الفرن مـوقد .. أدخلت فيه الصينية التى تحملها ، وهى تقول لى :

— أصل مافيش حدانا حطب نولع بيه الفرن !

وبقيت بجـانبها ، إلى أن اخـرجت الصينيـة من الفرن.. فإذا بها مليئـة بقطع اللحم. واعطتنى قطعـة كبيرة، ثم تسللت خارجـة من بيتنا.. وجـاءت أمى بعدها ورأتنى انهش فى قطعة اللحم، ولما رويت لها الحكاية، صرخت:

ـ ده لحم ديابه ياابنى!

ثم انهالت علىّ ضربا..

ومن يومها وأنا اعتقد ان قلبى قوى وجرىء..

و..

وأهم من شحاته وزوجته مباركة.. ابنته منصورة..

كـانت منصورة فتـاة صغيرة فى التـاسعة من عمـرهـا.. جميلة.. هـذا الجمال الذى يطل عليك من وراء اكوام السبـاخ، ولطخات الطين.. وكان لها شخصية.. شخصية أمها وقلب أبيها الجرىء.. ولكنهـا كانت طيبة.. كانت

تلعب معنا فى أزقـة القريـة وحقولها، وكانت تفـرض شخصيتها بـلا ادعاء ولا غـرور، ولا إيـذاء.. وكنت أنا فى الحاديـة عشرة من عمـرى، لى سطـوة اعيان القـرية.. سطوة أتغالى فى فـرضها على أبناء الفلاحين الـذين يلعبون معى..

وكنا نلعب يوما فى الزقاق، عندمـا شدتنى منصورة من جلبابى فمزقته، وصرخت فيها:

— وقعتك سوده يابنت مباركة!

وانهلت عليها ضربا..

وبكت منصـورة وجرت إلى بيتهـا، وشكتنى لأبيها، فأرسل أبـوها ابنـه حميدة ـ وهو فى مثل سنى ـ لينتقم لاخته..

ولم اكن ارهب شحـاته ولا ابنـه، فـانا ابـن الأسرة التى تحكم القريـة، والتى لايستطيع شحاتـه أن يرفع عينيه أو فـوهة بندقيتـه إليها.. كما انى كنت واثقا انى اقوى جسمانيا من ابنه حميده..

وتركت الـزقاق وذهبت إلى الحقل وحيـدا، وانا لاابـالى.. ثم رأيت حميده آتيا إلى.. ولكن الملعـون لم يكن وحده، كـان معه اكثـر من عشرة من صبية القرية، وبينهم منصورة.

ماذا افعل؟

انى لا استطيع ان ادافع عن نفسى ضد كل هؤلاء الصبية.. هل اجرى.. أهرب؟

ولم اهرب.. بقيت جالسا مكانى، وقلبى يرتعش، رغم انى سبق ان اكلت لحم الذئب..

واقترب الاولاد منى.. ووقفت لملاقـاتهم.. وقبل ان يـرفعـوا ايـديهم نحوى.. إذا بمنصورة تصيح:

ـ الجدع فيكم اللى يخش له لوحده.

ووقف الصبيـة مترددين.. وجـاءت منصـورة ووقفت بجـانبى كأنها تحمينى منهم..

وصرخت فيهم وقد أحسست بترددهم

— مـاتهجم يـاحميده.. مـافيش فيكم راجل.. والله لأخلى عمى العمـدة يطردكم انتم واهاليكم من البلد..

وبرطم الصبية وتصايحوا، ثم انصرفوا دون ان يمدوا أيديهم علىَّ..

وأصبحت انا ومنصورة أصدقاء طفولة..

أكثر من أصدقاء..

لقـد اعتبرتها فى حمايتى.. واعتبرتنى سيـدهـا.. كـانت دائما بجـانبى، ونحن نلعب.. وتنـازلت عن شـخصيتهـا وقلبهـا الجرىء امـامى.. لم تعـد تتحدانى، أو تحاول ان تغلبنى فى لعبة.. كان يكفيها ان تكون بجانبى..

وكنا نلعب لعبة العرايس.. كنـا نمثل اننا تزوجنا ولا أدرى أى شيطان ـ أو أى ملاك ـ كان يصور لنا أن الزواج هـو ان نتدحرج انا وهى فوق اكوام السباخ.. فكنا نقضى الساعات نتدحـرج فوق السباخ ـ دون ان نتلامس ـ ونضحك.. نضحك كثيرا..

وكبرنـــا.. وتغيرت ألعـــابنـــا.. ولكنهـــا كـــانت دائما هـــذه الألعـــاب الساذجة..وكانت منصورة دائما بجانبى..

وكبرنا اكثر.. ولم نعـد نلعب.. ولكننا كنا نتحادث فترات طويلـة.. حديثا عذبا بريئا.. لاشىء وراءه اكثـر من الحديث.. وقطرات فى لون الورد، تلون خدى منصورة..

وعندما اصبحت منصورة فى الرابعة عشرة، تزوجت..

تزوجت فى بلد آخر..

ونزحت انـا إلى القاهرة.. واصبحت اذهب فى كل موسم إلى القـرية.. وفى كل موسم تأتى منصورة من قرية زوجهـا، إلى قريتنا.. ونلتقى لقاء عابرا.. وقطرات فى لون الورد تلون خديها..



اليــوم الأخــير



سافرت إلى سويسرا..
كان أبى مريضا وتقرر علاجه هناك، واجتمعت العائلة وقررت أن أسافر معه لأرعاه.. ولم يعترض زوجى، ربما لأن أحدا لم يسأله رأيه..

وأقمنا ـ والدى وأنا ـ فى بلدة صغيرة تطل على بحيرة لوجانو.. بلدة جميلة هادئة كأنها قطعة من الجنة.. الغابة الخضراء تحتضنها.. والجبال تطل عليها.. والبحيرة راكعة تحت أقدامها..

إنها المرة الأولى التى أسافر فيها إلى أوربا.. ولم أكن أعتقد أن فى أوربا كل هذا الجمال.. انه جمال يوقظ أعصابى، ويفتح قلبى، ويضع بين شفتى ابتسامة دائمة تكاد تبتلع وجهى.. والهواء من حولى طرى.. والشوارع مرصوفة بزهور الاوركيديه والجليول.. وأنا أكاد أطير من الفرحة..

ولم تكن حالة والدى خطيرة إلى حد تقتضى منى ملازمته.. فكنت أطمئن عليه فى الصباح، ثم أخرج إلى البلدة وأنا أكاد آكلها بعينى.. آكل كل ما فيها.. كل ما فى شوارعها، وما فى دكاكينها.. وآه مما فى دكاكين أوربا.. شىء فوق العقل.. كأنى أسير فى دنيا مسحورة.. كأنى أسير فى مغارة على بابا.. إنى أنسى نفسى.. ويدى ترتعش وأنا أقلب بها فى معروضات الدكاكين.. ثم أحس أنى فقيرة.. إنى لم أحس أبدا بالفقر.. ولكنى الآن فقيرة لأنى لا أملك ما يكفى لشراء كل ما فى دكاكين أوربا..

ومرت الأيام وأنا فى الجنة..

وعرفت كل شارع من شوارع البلدة.. وعرفت كل دكان وكل ما فيه.. بل انى عرفت الكثيرين من أهل البلدة أنفسهم، وأصبحت أتحدث كلمات كثيرة من لغتهم.. وأصبحوا يهللون لى كلما أقبلت عليهم وينادوننى باسمى.. تحية!

ثم شبعت.. لقد شربت كل البلدة فى أيام..

وبدأت الابتسامة تفتر على شفتى.. وبدأت أتلفت حولى أبحث عن شىء جديد.. وكنت أجلس فى المقهى الذى يجاور الفندق الذى نقيم فيه وأحاول أن أحتفظ بابتسامتى.. وقد كان جلوسى فى المقهى أمرا مثيرا فى حد ذاته! فإنى لم أكن قد جلست فى مقهى من قبل.. ولكن المقهى بعد ذلك أصبح أمرا عاديا، ليس فيه شىء مثير، ولا جديد..

وشعور بالوحدة يزحف على صدرى.. وبدأت أتمنى لو كانت كل صديقاتى معى ليروا الجنة التى أعيش فيها.. وأقضى الساعات وأنا أتصور كيف سأقابلهن عندما أعود، وأعد الحكايات الطويلة التى سأرويها لهن.. ثم بدأ خيالى يبتعد عن صديقاتى.. بدأت أتمنى لو كان معى رجل.. رجل أسير معه فى الغابة.. وأسبح معه فى البحيرة.. ويجلس معى فى هذا المقهى.. ويطوف معى على الدكاكين.. ولم أكن أتمنى أن يكون هذا الرجل زوجى.. لا.. كنت أتمنى أن يكون معى رجل أحبه!!

وكنت وأنا جالسة فى المقهى أرقب مواكب البنات والشبان تسير على شاطىء البحيرة. كل بنت ذراعها فى ذراع شاب.. وكنت أبتسم لموكب الحب كأنى أرفع إليه صلاتى.. ولكنى مع الأيام بدأت أنظر إلى كل شاب يسير مع فتاة، وأتمناه لنفسى.. أو أتمنى أن أكون هذه الفتاة.. ثم لم أعد أحس بمجرد التمنى، أصبحت أحس بالغيظ.. نعم.. الغيظ.. الغيظ من كل فتاة تنعم بالحب.. من كل فتاة تسير مع شاب.. وأحس بأنى أهمّ بأن أهجم عليها وأشدها من شعرها وأبعدها عنه، وآخذه لنفسى.. ثم أصبحت أتعمد تشويه المعنى الجميل الذى يوحى به منظر فتى وفتاة يسيران على شاطىء البحيرة.. كنت أقول لنفسى: لعله يخدعها.. لعله يكذب عليها.. لعله لا يريد منها إلا جسدها.. وكنت أحس بأنى حاقدة.. كنت أحس أنى ظالمة إذ أشوه الجمال الذى يمر أمامى..

وكنت أعلم ما أريد..

وكنت أقاوم ما أريد..

ولم أكن أقاوم بإرادتى.. ولكنى كنت مدفوعة إلى المقاومة بقوة لا إرادية.. بقوة العمر الطويل الذى عشت فيه.. فتاة محرومة من الحب، ثم زوجة محرومة من الحب..

وكان فى الفندق الذى نقيم فيه، رجل إيطالى يقيم فى الحجرة المجاورة.. انه ليس شابا.. لعله فى الأربعين من عمره.. الشعرات البيض تتخلل شعره.. ولكنه قوى، ووسيم، وأنيق.. ويبتسم لى من بعيد..

وتجاهلت ابتسامته..

وقلت لنفسى: لا يصح أن أرد ابتسامة تأتى إلىَّ من بعيد..

ولكنه لا يكف عن الابتسام لى.. كلما التقينا، وكلما اجتمعنا فى صالة الطعام.. يرفع عينيه لى ويبتسم.. عيناه مستقرتان قويتان كأنه يعرف دائما ما يريد.. وابتسامته مهذبة رقيقة، تبدو كأنها ابتسامة خجولة.. كأنه يطمئننى بها على نفسى..

ولكنى بقيت مصرة على تجاهل عينيه.. وابتسامته..

والتقينا يوما فى المصعد.. وحدنا..

وأحنى رأسه لى فى أدب وقال فى صوت له رنين عجيب.. كأنه صوت جيتار:

— بونجورنو..

وأحنيت له رأسى، ولم أرد.. وأنا حريصة على أن أقف فى أبعد ركن من المصعد..

واستطرد يتكلم باللغة الفرنسية:

— هل الآنسة من اسبانيا..

وقلت فى لهجة باترة، وأنا أدير عينى عنه:

— لا ..

قال وابتسامته لا تفتر:

— من فرنسا إذن..

قلت :

— لا ..

وسكت قليلا ليعطينى فرصة لأتكلم.. لأقول له من أين أنا.. ولكنى لم أتكلم، وأدرت عنه عينى..

وعاد يقول :

— كيف صحة الوالد الآن ؟

قلت وأنا لا أنظر إليه، وأخبط الأرض بقدمى خبطات سريعة عصبية:

— الحمد لله..

ووقف المصعد.. وخرجت منه.. ولحق بى، ووقف أمامى، وقال وابتسامته ترتعش بين شفتيه:

— الواقع انى أعرف انك من مصر.. لقد سألت مدير الفندق.. ولكنى أردت أن أبدأ حديثا معك.. ما رأيك؟.. معى تذكرتان لحضور سباق الخيل الذى سيقام خارج البلدة.. ويشرفنى أن تقبلى دعوتى..

ونظرت إليه نظرة ترجمتها بالعربى: « يا سِمّ ».. ثم قلت بسرعة:

— آسفة.. ميرسي..

وأسرعت إلى غرفتى، وأغلقت الباب ورائى.. بالمفتاح.. لا خوفا من أن يدخل إلى، بل خوفا من أن أخرج إليه..

وألقيت نفسى على المقعد العريض، وسرحت..

إنى عبيطة..

لماذا رفضت دعوته..

إنى فى حاجة إليه.. وهو يبدو مهذبا.. حتى لو لم يكن مهذبا، فإنى بحاجة إليه..

ولكنى بعد ذلك ظللت مصرة على تجاهله، وعلى برودى فى الرد على تحيته..

وعدت يوما إلى الفندق فرأيته جالسا مع والدى.. وهممت أن أتجاهلهما وأتجه مباشرة إلى غرفتى.. ولكن والدى نادانى.. وقدمنى إليه.. وقال وهو يصافحنى:

— لقد تقابلنا فى المصعد من قبل.. إذا كانت الآنسة تذكر!

قلت فى برود:

— سيدة..

قال :

— آسف.. لم أكن أعتقد انك متزوجة !

وجلسنا.. أنا وهو حول أبى.. وفى لحظات وجدت حديثه يطوينى.. انه يحدثنى عن بلده، وعن بلدى، وعن الموضات، والموسيقى، والفن.. إن حديثه لا ينتهى.. ممتع..

وأصبح صديقنا.. يجلس دائما معنا، وينتقل فى صالة الطعام من مائدته إلى مائدتنا..

وأصبح فى حياتى شىء جديد..

أصبح يشغل وقتى وتفكيرى..

كان يخرج فى الصباح ليشرف على بعض أعماله.. وأخرج أنا لأجلس على المقهى ثم أعود قبل موعد عودته لأنتظره..

وعادت الابتسامة إلى شفتى..

لم أعد أغتاظ وأنا أرى فتاة تسير مع فتى على شاطىء البحيرة.. إن روبرتو يدعونى أيضا لأسير معه على شاطىء البحيرة..

ولكنى أرفض..

لماذا أرفض؟

لا أدرى..

إنى أقضى الليل الطويل أفكر فيه.. أتخيله يسير معى فى الغابة، وذراعه فى ذراعى.. وأتخيله معى ونحن نركب «التلفريك» نصعد الجبل.. وأتخيله معى ونحن نسبح فى البحيرة.. وأكثر من ذلك.. أتخيله يقبلنى.. يضمنى.. أتخيله لى..

ورغم ذلك أرفض دعوته..

وأنا هنا حرة.. حرة ووحيدة.. ليس حولى مجتمع يحاسبنى أو ينظر إلي أو يهتم بى.. ليس هنا ألسنة أصدقاء وصديقات.. وزوجى وأولادى بعيدون عنى.. بعيدون جدا.. كل شىء ممهد لمغامرة.. وروبرتو أكثر من مغامرة.. انه حب.. نعم.. انه حب..

ورغم ذلك أرفض دعوته..

وقال لى مرة وأنا أرفض إحدى دعواته:

— كنت أتمنى أن أرى زوجك، لأهنئه بك.. لم أكن أعتقد أن هناك زوجة تحب زوجها إلى هذا الحد..

وابتسمت ساخرة..

إنه لا يعلم كيف اخترت هذا الزوج..

لقد كنت فى الثامنة عشرة من عمرى عندما أصر أهلى على أن أتزوج.. ولم أكن أريد الزواج.. كنت أريد أن أستمر فى دراسة الرسم، إلى أن أسافر إلى أوربا وأتم فيها تعليمى.. ولكنهم أصروا على أن أتزوج.. أصروا على أن يحطموا الحلم الوحيد الذى كنت أعيش له.. ولم تفلح توسلاتى.. هددت بالانتحار، فتركونى أهدد..

يجب أن أتزوج..

وكان هناك ثلاثة خُطّاب واقفين بالباب.. طبيب شاب.. وسيم.. ثرى.. ومهندس لا يقل عنه شبابا ووسامة وثراء.. وموظف فى وزارة الزراعة.. ليس وسيما.. وفوق عينيه نظارات سميكة.. وأقل من الآخرين شبابا وثراء..

واخترت الأخير..

لماذا؟

لأنى أردت أن أغيظ أهلى.. خيل إلي أنى أنتقم منهم.. وأعاقبهم..

وحاولوا أن يجعلونى أعدل عن رأيى.. أن أتزوج الطبيب أو المهندس..

ولكنى أصررت.. إذا أردتم أن تزوجونى فلن أتزوج إلا هذا..

وزوجونى له..

وأنا أبتسم فى شماتة كأنى انتقمت منهم..

ومنذ اليوم الأول لزواجى، وطوال خمس سنوات، وأنا أتعذب..

أتعذب وأسكت على عذابى..

لقد ارتد انتقامى إلى صدرى.. ولم يخفف من عذابى ولدى وبنتى اللذان رزقت بهما.. انهما فقط أصبحا ثمنا للعذاب..

ورغم ذلك فروبرتو يعتقد انى أضن عليه بنفسى حبا فى زوجى..

لا يا روبرتو.. إنى لا أحب زوجى.. إنى أحبك أنت.. إنى أريدك..

ولا تسألنى لماذا أرفض.. إنى أنا نفسى لا أدرى.. ربما لأنى أحبك وأخاف أن يكتمل هذا الحب فأتعذب به بعد فراقنا القريب.. ربما لأنى أجبن من أن أعطى.. نعم إنى جبانة.. جبانة.. جبانة..

وأنا أتعذب..

أتعذب بمقاومتى.. مقاومتى لنفسى.. ومقاومتى لروبرتو.. ومقاومتى للجمال الذى يحيط بى.. لكل ما يغرينى بأن أعطى.. وآخذ؟

وجاء اليوم الأخير..

غدا سنعود إلى مصر..

وجلست فى المقهى وأنا أفكر فى العودة.. لم أكن أفكر فى لقاء أولادى وزوجى وأهلى.. كنت أفكر فى الخيبة التى أعود بها.. سأعود بلا شىء.. سأعود دون أن أتذوق الجمال إلى آخره.. سأعود كما جئت.. عاقلة..

وبدأت ثورة عنيفة تجتاحنى.. أريد أن أستغل حريتى.. أريد أن أستغل وحدتى.. أريد أن أمتع نفسى.. أريد مغامرة.. أى مغامرة.. كل ما أحتاج إليه هو الجرأة.. الجرأة.. نعم الجرأة..

وعلى مائدة مجاورة فى المقهى، رجل ينظر إلي ويبتسم.. مضى وقت طويل وهو ينظر إلي ويبتسم..

وفجأة..

دون أن أدرى ..

التفت إليه التفاتة مباغتة، وابتسمت له ابتسامة مرسومة واسعة ليس لها معنى..

وتقدم منى، وسيجارة فى فمه..

وأخرج من جيبه بضعة نقود فضية وتركها على المائدة ثمنا للقهوة التى شربتها.. ثم أمسكنى من ذراعى، وقال وسيجارته لا تزال فى فمه:

— تعالى..

قلت وأنا أنظر إليه فى تردد وخوف:

— إلى أين؟

قال :

— سترى..

ووضع ذراعه فى ذراعى وسار بى دون أن ينظر إلي.. ثم أركبنى فى سيارته.. وأنفاسى تتلاحق.. وصدرى يتهدج.. وعيناى مبهورتان.. وأنا لا أدرى.. لا أدرى شيئا.. كل ما أعلمه انى لقيت نفسى فى مغامرة.. ولا أدرى ما هى المغامرة..

وقلت له وأنا أحاول أن أبتسم:

— أريد أن أتمشى على شاطىء البحيرة..

قال :

— فيما بعد..

قلت :

— هل سنذهب إلى الغابة..

قال :

— ليس الآن..

وسيجارته فى فمه..

وأوقف السيارة أمام بيت خشبى صغير فى أطراف البلدة، ونزل منها، وقال فى لهجة آمرة:

— تعالى ..

وترددت.. لم أنزل.. ودار حول السيارة وفتح لى الباب، ثم جذبنى من ذراعى وهو يبتسم ابتسامة جارحة.. وسيجارته تطل من بين ابتسامته..

وأدخلنى البيت الصغير الخشبى، ووقفت أرقبه وهو يصب الخمر فى كأسين كأنى طفلة أنظر إلى أحد الحواة وهو يستعد للقيام بأحد ألعابه..

وتناولت الكأس من يده وشربتها..

إنى فى حاجة إلى هذه الكأس..

فى حاجة إلى كأس أخرى..

واقترب منى وضمنى إليه.. بقسوة.. ووقاحة.. وقبلنى.. ان قبلته عنيفة لها رائحة عجيبة.. وعقلى يحاول أن يظل صاحيا ليرقب ما يفعله هذا الرجل.. يرقب ما يفعله الحاوى لعله يكتشف سره..

ولكن عقلى يدور..

كل شىء حولى يدور..

الخمر تغلبنى..

وبدأ ينزع عنى ثيابى.. ولعلى صحت.. لا.. لا.. نعم، لقد صحت: لا.. لا.. فقهقه الرجل قهقهة عالية، واستمر يخلع عنى ثيابى..

إنى لا أستطيع أن أقاوم..

— لا أستطيع..

كل شىء يدور..

وأريد أن أبكى..

وتركنى..

وقمت أتمايل وأبحث عن ثيابى.. وأمعائى تنقلب.. والبؤس يسرى فى جسدى.. وأريد أن أبكى..

واقترب منى وهو يضع يده فى جيبه، وقال وسيجارته بين شفتيه:

— كم ؟

ونظرت إليه فى هلع..

وعاد يصيح :

— كم ؟

ثم قهقه وهو يرانى ساكتة والهلع فى عينى واستدار عنى ووضع فى حقيبتى بعض أوراق النقد..

وصرخت..

صرخت كأننى جننت..

وجريت خارجة من البيت.. وظللت أجرى.. لا أدرى كم جريت.. ثم وجدت نفسى فى سيارة.. أبكى..

وعدت إلى الفندق، وما كدت أصعد السلم، حتى واجهنى روبرتو.. ونظر إلى فى دهشة، وقال:

— أين كنت ؟

ووقفت أنظر إليه برهة، ثم فجأة صرخت:

— أنت.. أنت.. ابعد عنى.. ابعد عنى..

ثم جريت إلى غرفتى وهو ينظر إليّ فى دهشة أكبر.. والنزلاء ينظرون إلي.. وعامل الفندق ينظر إلي..

وأغلقت بابى بالمفتاح..

ولم أفتحه إلا عندما جاء والدى يعلننى باقتراب موعد الطائرة..

***

إنى لا أحدث صديقاتى كثيرا عن رحلتى فى أوربا.. ولا أحدث عنها زوجى ولا أولادى..

إنى أحاول أن أنسى..

أنسى أنى كنت فى أوربا..



التجربة الأولى



عشت آخر سنوات عمرى فى طنطا.. عشتها كأنى ملك صغير.

كان أبى هو مأمور البندر.. وكنت أذهب إلى المدرسة وخلفى عسكرى بوليس يحمل لى حقيبتى.. وكان المدرسون يعاملوننى كأنى مفتش التعليم.. وزملائى فى المدرسة ينظرون إلىَّ كأنى هابط عليهم من السماء.

ولم يفسدنى هذا المركز الممتاز الذى أحتله وسط المجتمع الضيق الذى يحيط بى.. بالعكس، لقد كنت أشعر بمسئوليتى التى يفرضها علىَّ مركزى. كنت أحاول أن أبدو كأنى أبى.. أتكلم فى وقاره.. وأحسب حساب كل لحظة بأنى «ابن المأمور».

ودفعنى هذا الاحساس بالمسئولية، إلى الترفع عن حياة الصبيان الصغار.. واخترت من بين زملائى اثنين، يتساويان معى فى مركزى الاجتماعى.. ابن ناظر المدرسة، وابن محام.. واتخذت منهما صديقين، نقطع أوقات فراغنا فى ألعاب هادئة.. وحديث وقور!

وإلى أن حصلت على شهادة التوجيهية، وأنا فى السابعة عشرة من عمرى.. لم تكن لى علاقة بالبنات.. لم تكن لى علاقة ببنت.. ولا بامرأة طبعا.. وربما جرى خيالى وراء بنت الجيران.. وربما اعتقدت انى أحبها.. من بعيد.. ولكن الواقع انى لم أكن أحبها.. ولكنى كنت أحب احساسى بالحب.. وكان إذا انتقل الجيران من الحى، جرى خيالى بنفس القوة وراء بنت الجيران الجدد.

وانتقلنا إلى القاهرة.

والتحقت بالجامعة.

وفى القاهرة أحسست بالضياع.. فقدت مركزى.. لم أعد ابن المأمور.. ووجدت نفسى تائها، لا استطيع أن أكون ضمن المجتمع القاهرى الراقى، لأنى لا أملك مؤهلاته.. ولا استطيع أن أكون ضمن مجتمع الطبقة

الوسطى، لأنى تعودت أن أترفع عن هذا المجتمع واعتبر نفسى أرقى منه.

وهذا الضياع.. جعلنى انطوى على نفسى.. وجعل علاقاتى الاجتماعية ضيقة، لا تتعدى زميلا أو زميلين.

ولم تدخل فى حياتى النساء.. ولا البنات.

البنات الراقيات لا استطيع أن أصل إليهن.. والبنات الرخيصات اترفع عنهن.. وكنت أسمع من بعض الطلبة انهم يترددون على بيوت بيع الاجساد.. أو أن لواحد منهم علاقة بخادمته.. أو أن جماعة منهم التقطوا امرأة من فوق الرصيف.. وكنت أشعر أحيانا بأنى يجب أن أجرب إحدى هذه المغامرات.

كان دافع حب الاستطلاع، ومحاولة مباشرة رجولتى، يجعلانى أقرر أن اشارك الطلبة فى هذا النوع من اللهو.. ولكنى لم أكن استطيع.. كانت تربيتى، وعادة الترفع، وانطوائى الطبيعى.. كان كل ذلك أقوى من أن يجعلنى أندفع فى مثل هذه المحاولة.. ولو لمجرد اشباع غريزة حب الاستطلاع!

ونلت الليسانس، وعمرى واحد وعشرون عاما.. ولم أقرب امرأة.. فى حياتى!

وقررت أن أعود إلى طنطا، لأقضى فترة التمرين على المحاماة، فى مكتب احد المحامين من أصدقاء ابى.

وفى طنطا ازداد ترفعى عن الصغائر.. وضاقت أمامى الفرص لإشباع غريزة حب الاستطلاع.. فأنا معروف هناك.. ولازال الناس يذكرون انى «ابن المأمور» رغم أن ابى لم يعد مأمورا.. فلا استطيع أن أجازف بالتردد على بيت من بيوت الأجساد، أو أجازف بأن يعرف عنى أنى على علاقة بخادمة.

ولكن.. جد شىء جديد.. وهو انى بدأت التقى بكثيرات من بنات العائلات فى مكتبى.. وفى مدينة كطنطا لاتوجد فرص للتعرف على بنات العائلات إلا فى دوائر العمل...الطبيب يتعرف إليهن فى عيادته.. وصاحب الاجزخانة يتعرف إليهن فى الاجزخانة.. وتاجر الخردوات يتعرف إليهن فى

دكانه.. ودوائر العمل عادة هى أيضا دوائر اللقاء بين حبيبين!!

وكانت هناك سيدة من عائلة كبيرة تتردد على مكتبنا كثيرا لتتبع قضاياها ودائما مع ابنتها.. فتاة متوسطة الجمال، فى السابعة عشرة من عمرها.. وكانت السيدة الكبيرة تتعمد دائما السؤال عنى كلما جاءت، ثم تجلس أمام مكتبى ومعها ابنتها.. ويدور الحديث معظمه عن ابنتها.. ومهارتها.. وتزاحم الخطاب عليها.. وبدأت أحس بعاطفتى تتجه نحو الابنة.. وكان يمكن أن تكتمل هذه العاطفة.. ولكنى فجأة تنبهت إلى أن الأم تحاول اصطيادى زوجا لابنتها.. وداهمنى هذا الشعور إلى حد انى احسست كأن هناك محاولة لاصطيادى.. لافتراسى.. ولم تستطع ابتسامات الابنة، ولا نظراتها اللينة، ولا تنهداتها، ان تخفف من هذا الاحساس.. إن هذه البنت لا تحبنى.. انها تريد أن تتزوجنى.. ان كل البنات لا يعرفن الحب، ولا يخلصن للحب.. ولكنهن يعرفن الهدف، ويخلصن للهدف.. والهدف هو الزواج!

وبدأت أهرب من السيدة وابنتها.

بل أصبحت أهرب من كل سيدة تدخل المكتب مع ابنتها.. وعرف زملائى فىّ هذا النفور.. وعرفوا أيضا انه لم يسبق لى أن جربت علاقة بامرأة.. فتعودوا أن يتندروا علىّ، ويطلقون علىّ لقب «الملاك عبدالحميد»، وأحيانا «الشيخ عبدالحميد».

وفى يوم ذهبت إلى قسم بوليس البندر.. وأنا أعرف كل ضباط البوليس باعتبار صفتى السابقة كابن المأمور.. وكنت أحب أن أتردد على القسم كأنى استعيد هناك ذكرى مجدى الغابر، وذكرى سطوة ابى ونفوذه.. ووجدت أمام ضابط البوليس امرأة واقفة فى انكسار.. امرأة صغيرة لاتتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها.. سمراء، وعيونها خضر، وشفتاها مكتنزتان، وقوامها طويل ملفوف.. و.. ولا أدرى ما الذى حدث لى.. لقد انطلق احساسى يتعلق بهذه المرأة.. كأن قلبى قفز وتعلق بها، كما يقفز صبية القاهرة ويتعلقون فى عربات الترام.

ووجدت نفسى أواجه ضابط البوليس وأسأله فى اهتمام بالغ عن هذه

المرأة.. وقال لى، انها ضبطت متلبسة بسرقة بعض الثياب.. ثم ابتسم، وصاح بالعسكرى الواقف عند الباب: «هات واحد عصير للست يا أومباشى»!!

وكنت أعرف ماذا يعنى طلب عصير القصب، فى عرف ضابط البوليس.. انه رشوة يقدمها للمرأة حتى تعترف.. ولايهم أن تعترف بالحقيقة.. المهم أن تعترف بالسرقة حتى ولو لم تكن سارقة، فتعفيه ـ أى حضرة الضابط ـ من متاعب البحث والتحرى.. فإذا لم يفلح عصير القصب فهناك وسائل أخرى.. ليس أعنفها صفعات الاومباشى.

وقلت للضابط:

ــ حرام عليك.. دى باين عليها غلبانة!

وابتسم الضابط كأنه يتهمنى بأنى اشتهيها، وقال:

ــ ماحدش غلبان إلا أنا.. وأنت!

وقبل أن أقرر شيئا بينى وبين نفسى.. اعترفت المرأة فى محضر البوليس.. اعترفت بالسرقة.. وساقوها إلى غرفة الحجز.

ولأول مرة أحس بكراهية البوليس.. أنا.. ابن المأمور.. أحسست بكراهية البوليس.. كل البوليس.

وعدت إلى بيتى، واحساسى كله متعلق بهذه المرأة.. ووجهها الأسمر، وعيونها الخضر، وشفتيها المكتنزتين، وقوامها الملفوف.

وقمت فى الصباح وقد قررت أن أتطوع للدفاع عنها فى المحكمة.. ولم أكتف بهذا.. بل اتفقت مع زميل معى فى المكتب أن يشاركنى فى الدفاع عنها.. وأكثر من ذلك، ارسلت إلى صديقى فى القاهرة الذى تخرج معى، أدعوه إلى طنطا ليشترك معنا فى الدفاع.

وانقضت الأيام، وأنا لا استطيع أن ابتعد باحساسى عن المرأة.. خيل إلى انى احبها.. وبدأت أفلسف حبى، واقنع نفسى بأنى إنما أحب العدالة.. وانى سأجعل من قضية هذه المرأة، قضية هامة كقضية دريفوس.. البرىء الذى انقذه فيكتور هوجو.

وفى يوم المحاكمة، فوجئت زينب بثلاثة محامين يقفون للدفاع عنها.. ووقفت اتكلم.. وكنت قد أعددت دفاعا مجيدا حطمت به كل الأدلة المزورة التى أقامها عليها البوليس.. بل حطمت بها اعترافها نفسه.. ولكنى بعد أن تكلمت كلمتين، طار ما اعددته من رأسى، وإذا بى أصيح فى القاضى.. انظر ياحضرة القاضى.. انظر إلى هذا الملاك.. هل يمكن أن تكون هاتان العينان البريئتان الخضراوان الجميلتان عينى سارقة.. هل يمكن أن تكون هذه الشفاه المرتعشة، شفاه سارقة.. هل يمكن أن يكون هذا الجمال .. جمال سارقة.. و.. ولم أعرف كل ما قلته إلا بعد أن اطلعت على دوسيه القضية.. ودهشت.

وخجلت ..

وحكمت المحكمة على زينب بالحبس سنة.

واستأنفت ..

وتأيد الحكم فى الاستئناف..

وحاولت بعد ذلك أن أنسى زينب.. ولكن مستحيل.. انها فى خيالى.. فى أعصابى.. فى قلبى.

ومر عام.. أقل من عام.. وإذا بى أجد زينب أمامى فى مكتبى.. أطلق سراحها، بعد أن أوفت المدة المحكوم عليها بها..

وارتبكت..

لم أكن قد تعودت أن أراها إلا خلف القضبان، أو فى حراسة البوليس.. ولكنها الآن أمامى، بلا قضبان، وبلا بوليس..

وازداد ارتباكى..

وقالت زينب فى صوتها المنغم :

— أنا تحت أمرك يابيه.

ولم أفهم ما تعنيه.. رددت كلاما مبهما.. وعادت هى تقول :

— خدامتك يابيه..

وعدت أردد كلاما مبهما اهنئها به على سلامتها .. واقتربت منى.

اقتربت منى أكثر من اللازم.. وأنفاسها الساخنة تطوف حول وجهى.. وأعصابى ترتعش.. وأحس كأنى واقف على حافة هاوية.. هاوية بعيدة.. فى قاعها جنة تغرينى.. جنة أريد أن أعرفها..

وقال لها زميلى ضاحكا :

— سيبك منه.. ده مالوش فى الحاجات دى!

وقالت زينب وشفتاها تكادان تلمسان خدى :

— والنبى لو طلبت عينيَّه لأديهم لك ياسى عبدالحميد..

وقال زميلى :

— طيب تعالى.. قوم ياعبدالحميد!

قلت :

— آسف.. أنا مشغول شوية!

قال :

— قوم بس ياشيخ..

وشدنى من ذراعى وسار بى.. وزينب تسير خلفنا.. إلى أن وصلنا إلى بيته.. وهناك تركنى فى غرفة، وحدى مع زينب، وقال لها وهو يغلق علينا الباب :

— حاسبى عليه .. ده لسه خام!

وكنت خام فعلا ..

واجتازت بى زينب التجربة الأولى من عمرى.. وعرفت شيئا لم أكن أعرفه.

وبعدها أصبحت كالطفل الذى لا يريد أن يترك أمه.. لا أريد أن أترك زينب.. لا أكاد أذهب إلى المكتب حتى أعود إليها.. بكل شبابى.. بكل حماسى.. بكل حبى.

هل احببتها !؟

لا أدرى.

ربما احببت التجربة.. تجربة قضيت فيها ستة شهور.. ثم.. اختفت زينب.. لا أدرى أين ذهبت.. لقد قالت لى انها ذاهبة إلى القاهرة لزيارة أهلها،

وزيارة اضرحة أولياء الله.. وقد ذهبت .. ولم تعد.

انى الآن ــ وبــعد عشر سـنوات ــ قــاضى.. وقـد تعودت عنـد نظـر القضايا أن أهمل قراءة محاضر البـوليس، ولا اعتمد عليها فى تكوين رأيى.. انى أعـرف كيف تحرر هـذه المحـاضر ومحضر منها كـان سببـا فى حبس زينب.

وأنـا لم أتـزوج.. لأن بناتنـا لا يـؤمنّ بـالحب.. انهن يؤمن بـالـزواج، ولا يسـعين لرجـل إلا من أجل الـزواج.. ولكـن زينب لم تكن تـريـد أن تتزوج.



زبيـــدة هـانم



زبيدة هانم .. سيدة فى الستين من عمرها، تبدو أصغر من سنها بكثير.. يحيط بوجهها شعاع هادىء مريح .. وبين شفتيها ابتسامة طيبة لا تفتر أبداً.. وحديثها حلو ينبض بالحب، كأن كل الناس أولادها.. وهى متدينة تغالى فى تدينها .. حجت إلى بيت الله سبع مرات.. وتصلى الفرض والسنة.. وتقرأ القرآن كل ليلة.. وتوزع الصدقات.. ولم أرها أبدا إلا ووشاح رقيق يلف رأسها، ويخفى خصلات شعرها.. وكانت تختار لنفسها دائما ثيابا وقورة غامقة، تنم عن ذوق جميل أصيل..

وقد عرفتها منذ سنتين.. قدمنى إليها ابنها اسماعيل.. وأحببتها .. كنت أشعر عندما أجلس إليها بهدوء غريب.. وكانت نفسى تستكين .. وأعصابى تسترخى.. وأحس أن الدنيا من حولى تسير فى صمت، كأنها تسير على أطراف أصابعها حتى لا تقلقنى ..

وكان حبى لزبيدة هانم فيه إعجاب كثير.. كنت معجبا بشخصيتها، وعقليتها المتحررة، وترحيبها بتطور التقاليد وبانطلاقات الجيل الجديد.. وكان إعجابى هذا ينقلب إلى دهشة، وأنا أرقبها وهى تعامل أولادها وبناتها وأحفادها.. كانت تشجعهم على الانطلاق .. على الذهاب إلى السينما، والتردد على المسارح، والاشتراك فى النوادى.. بل كانت تسمح لبناتها وأولادها وأحفادها بأن يقيموا حفلات راقصة فى بيتها.. كانت تتركهم يرقصون التشاتشاتشا والروك آند رول فى غرفة الصالون ، بينما تصلى هى فى غرفتها متشحة بطرحتها البيضاء ..

وفى يوم لم أستطع أن أخفى دهشتى عن زبيدة هانم ، فقلت لها :

— لم أكن أعتقد أنك فى هذا السن تؤمنين بالتطور الذى وصلت إليه حياتنا.. ان كل الأمهات لايؤمن بالتقاليد الجديدة.. ويحرمن بناتهن من

الرقص، ومن الخروج، ومن الاختلاط.. ماعدا أنت.. ان عقليتك أكثر تقدما من كثير من الأمهات ..

وقالت بصوتها الهادىء المريح :

— ليست عقليتى .. ولكنها تجاربى ..

قلت :

— كيف ؟..

قالت :

— لقد قضيت شبابى فى جيل لايبيح للبنات الاختلاط ، ولا الظهور فى المجتمعات ، ولا الرقص .. ورغم ذلك فلم يستطع هذا الجيل أن يحمى البنات من الخطيئة.. بل كانت بنات عصرنا أكثر تعرضا للخطيئة، وإقبالا عليها ، من بنات الجيل الجديد ..

قلت :

— كيف ؟..

قالت :

— سأروى لك قصة .. ولكن ليس الآن ..

ولم يكن من عادتى أن ألح على زبيدة هانم فى حديث .. فهى تعرف دائما متى تختار الوقت المناسب لكل حديث ..

ومرت أسابيع طويلة وأنا أتردد على البيت كل يوم تقريبا.. وأعيش مع الأولاد والبنات ، فى جو مرح، منطلق، متحرر.. نرقص ، ونلعب ، ونتحدث عن الكتب التى قرأناها ، والأفلام التى شاهدناها.. وحديثنا كله نظيف.. وأحاسيسنا دائما نظيفة .. ونظراتنا كلها نظيفة.. كانت الفضيلة تملأ البيت علينا.. الفضيلة الحقة، لا الفضيلة التى تكتفى بالمظهر ..

وفى يوم من الأيام دعتنى زبيدة هانم لأشرب معها القهوة فى غرفتها.. وكانت القهوة التى أشربها فى غرفتها غير القهوة التى أشربها مع أولادها.. تفوح منها رائحة الحبهان، ولها طعم دسم كأنها قهوة معتقة صنعت منذ عشرات السنين.. من أيام الشرق القديم.

وطافت زبيدة هانم بالحديث حتى بدأت تقارن بين أخلاق بنات زمان

وبنات هذه الأيام.. وقالت فى صوتها الهادىء المريح :

— كانت البنت على أيامنا لا تحمل مسئولية نفسها.. حتى مسئولية صيانة شرفها.. كانت هذه المسئولية ملقاة على الخادمات، وعلى الخفراء المدججين بالسلاح الذين يحيطون بالبيت، وعلى الأبواب المغلقة ، وعلى البراقع التى تغطى وجوهنا.. كان الرجال لايؤمنون بأن البنت يمكن أن تكون شريفة من تلقاء نفسها، فأحاطوها بكل هذه القيود ليحفظوا لها شرفها رغما عنها.. تماما كالمجرم الذى تعتبره الدولة غير قادر على تحمل مسئولياته الاجتماعية فتضعه فى السجن ..

وسكتت زبيدة هانم قليلا ريثما رشفت من فنجان القهوة، ثم استطردت وقد امتلأت عيناها بنظرات تائهة :

— ولكن السجن لم يصن للبنات أخلاقهن ولا عفافهن.. وكن يعشن خلف الأسوار فى فراغ كبير.. فراغ الروح، وفراغ العقل.. ولم يكن هناك ما يثير اهتمامهن، ويقنعهن بأهميتهن فى الحياة إلا علاقتهن بالرجل.. وهن لايعرفن عن الرجل إلا أنه زميل فراش.. لايأخذن منه إلا جسده، ولا يعطينه إلا أجسادهن.. وكانت الصديقات عندما يجتمعن لا يجدن حديثا يثير حماسهن إلا الحديث عن الرجل.. كيف يعددن أجسادهن للرجال.. وكيف يستقبلن أزواجهن.. وكل منهن تحكى عن زوجها كل التفاصيل، وأدق التفاصيل.. حديث قد تعتبره قذرا تافها.. ولكنهن كن معذورات، فلم يكن هناك شىء آخر فى حياتهن يشعرهن بأهمية وجودهن ..

وسكتت زبيدة هانم برهة ، ثم قالت وهى تتنهد :

— ولكن الأزواج وحدهم لم يستطيعوا ملء هذا الفراغ الكبير.. فراغ الروح وفراغ العقل.. وكانت هذه الأحاديث الجنسية تثير فى النساء اندفاعا جريئا.. فكانت الكثيرات منهن يجدن أنفسهن منساقات نحو الخطيئة.. ومن خلف البرقع، ومن خلف الأسوار العالية، ومن خلف الخفراء المدججين بالسلاح كانت المرأة تستطيع دائما أن تصل إلى عشيقها ..

ورشفت زبيدة هانم رشفة من فنجان القهوة ، ثم استطردت وهى

تعبث بأصابعها فى حبات مسبحتها، دون أن تنظر إلىّ :

—كانت لى صديقة .. كانت أجمل بنات تلك الأيام.. طويلة.. واسعة العينين.. حلوة التقاطيع.. ضفائرها تصل إلى ما بعد خصرها.. كان جمالها حديث كل العائلات.. وكانت رقيقة، هادئة.. وقد تزوجت وهى فى السابعة عشرة.. وكان زوجها شابا مليئا بالحياة.. تطمع فيه كل البنات.. ولم تره قبل أن تزف إليه، وكان يمكن أن تحبه بعد أن تزوجته.. ولكنه لم يعطها شيئا يمكن أن تحبه من أجله.. لم يعطها شيئا يملأ فراغ حياتها.. لم يعطها شيئا سوى جسده، يلقيه بجانبها كل مساء.. ومر عامان بدأت تحس خلالهما بثقل الفراغ.. وبدأت تنقاد لصديقاتها فى حديثهن عن الرجال، وعن المغامرات.. وبدأ جسدها ينتفض ويقشعر، وهى لا تجد ما تهتم به إلا جسدها ..

ثم جاءتها «البلانة» يوما لتقول لها أن على بك معجب بها.. وانه يحبها.. وانه رآها مرة وهى تركب عربتها الكوبليه، ومن يومها لم ينم.. وهو مستعد أن يبيع عمره فى سبيل لقائها..

ودهشت صديقتى .. فعلى بك هو صديق زوجها الحميم الذى لا يفترق عنه.. انه دائما معه، ودائما يتحدث عنه ، ودائما يتزاوران ..

والبلانة تلح .. وتأتى إليها كل يوم بخطاب من على بك .. خطاب يلتهب بكلمات الغزل الصريح ..

وكان على بك ألمع شباب المجتمع فى ذلك الحين.. وكان مشهورا بمغامراته النسائية.. ووجدت صديقتى فى ملاحقته لها ارضاء لغرورها، وتعويضا عن إهمال زوجها لها .. وبدأت تنتظر زيارته لزوجها، وتقف خلف النافذة الخشبية لتراه.. ترى قامته القصيرة الأنيقة.. وعينيه التركيتين الخضراوين وطربوشه الطويل .

ثم ..

ثم استجابت .. استجابت تحت ضغط الفراغ، والملل ، والاهمال، والاحساس الجسدى.. وخرجت من بيتها بحجة زيارة أهلها.. وهى تضع على وجهها البرقع الأبيض، وتغطى شعرها «برأس الملاية» كعادة سيدات

ذلك الزمن.. وركبت العربة «الكوبليـه» وبصحبتها بلانتها.. وأخذتها إليه.. فى «فيلا» خاصة أعدها خصيصا لاستقبالها ..

واستسلمت له .. استسلمت لـه من أول يوم، فلم تكن تعرف شيئـا آخر يمكن أن تقابل رجلا من أجله، إلا أن تعطيه جسدها ..

وشغلت مغامرتها كل فراغها .

انها تفكر فيه إلى أن تقابله . ثم تعود تفكر فيه إلى أن تقابله مرة أخرى ..

ولم تكن تحبه ، ولكنه كان فقط يملأ فراغ حياتها ..

وفى يوم ذهبت إليه ، ودخلت إلى الفيلا، ولم تجده .. تـأخر عن موعده .. وكان قد بدأ يتأخر فى مواعيده منذ أصبح وزيرا ..

وفجأة وهى جالسـة فى انتظاره .. أحست بصوت أقدام تـدخل .. أقدام غريبة ..

وأسرعت وأحاطت وجهها برأس الملايـة حتى لم يعد يبدو منه إلا طرف عينيها.. والتفتت فرأت أمامها زوجها ..

وقامت بسرعة وهمت بالانصراف .. ولكن زوجهـا وقف فى طريقها، وبدأ يغازلها دون أن يعرفها .. وسمعت منه كلامـا حلوا لم تسمعه منه أبدا.. ثم حاول أن يمـد يده إليها ، وهـو يؤكد لها أن صـديقه على بك لن يأتى .. وان ليس بينه وبين صديقـه فرق، وان هذه الفيلا قد استأجراهـا سويا ، واتفقا على أن كل امرأة تدخلها حق لكليهما ..

ولم تنطق بكلمـة.. خـافت ان تكلمـت أن يعـرف صـوتها.. ثم انتهـزت فـرصة، واستطـاعت أن تفر منـه، وملاءتها تغطى وجههـا .. وظلت تجرى حتى خـرجت من الفيـلا .. ثـم ظلت تجرى إلى أن وصلت إلى عـربتهـا التى كانت تنتظرها فى مكان بعيد ..

ولم تعد إلى عشيقها ..

كرهته ..

وكرهت زوجها ..

وكرهت نفسها ..

أصبحت تتقزز من الرجال كلهم .. وتتقزز من نفسها.. وعاشت حياتها كلها بعد ذلك وهى فى تقزز تحاول أن تتخلص منه بالتقرب إلى الله ..

وسكتت زبيدة هانم طويلا ..

وسكت معها ، وأنا أنظر إلى وجهها وقد ازداد بياضه، وتهدجت أنفاسها كأنها كانت تجرى طريقا طويلا ..

ثم عادت تقول :

— ليس أخطـر على البنت من الفـراغ .. وليس أخطـر عليهـا من أن نسجنها .. ان الفكـرة الوحيـدة التى تسيطر على عقل السجين هى الهرب .. وقد تعمدت أن أطلق لبناتى حريتهـن، وأن أحملهن مسئولية هذه الحرية .. وأؤكد لك أن بنات هذه الأيـام أفضل من بنات جيلنا.. إنهن على الأقل يجدن ما يشغلن به عقولهن، وأرواحهن، ويتلهين به عن أجسادهن.. انى لا أخاف على ابنتى عندمـا أراها ترقص، أو تـذهب إلى النادى.. ولكنى أخـاف عليها ، عندما تجلس فى بيتها والملل والفراغ يحيطان بها ..

ونظرت إلى زبيدة هانم ، وقد ازداد اعجابى بها ، وقلت :

— لك حق ..

ثم تركتهـا ، وخرجت إلى أولادها وبنـاتها وأحفادها ، وهم يـرقصون ، ويمرحون مع أصـدقائهم وصديقاتهم.. وكل منهم معتز بشخصيـة قوية، وعقل واع.. والفضيلة تملأ عليهم البيت ..

وظلت القصة التى روتها لى زبيدة هانم تتردد فى رأسى ..

من هى صديقتها هذه ؟

لماذا لا تكون زبيدة هانم نفسها ؟

أظن ..

● ● ●



الفيلسوف



كنت طالبا فى مدرسة الزقازيق الثانوية.. وكنت أدمن قراءة كتب الأدب.. قرأت لطه حسين، والمازنى والعقاد وتوفيق الحكيم، وأنا لا زلت فى سنة ثالثة.. وقرأت المقريزى، وابن خلدون، والمتنبى، والشريف الرضى، وأبا نواس، وكتاب طوق الحمامة وأنا فى السنة الرابعة..

وفى خلال هذه السنوات كنت أكتب الشعر.. وكنت ألقى أشعارى بين طلبة المدرسة، وفى المقهى الذى نجتمع فيه، وفى كل حفل أدعى اليه.. سواء كان حفل قران، أو حفل تأبين، أو حفل ختان، وقد احترت كثيرا عندما فكرت فى أن أتخذ لنفسى لقباً لى كشاعر.. لقباً أعرف به وتتداوله الأفواه فى العالم العربى، من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى.. قررت أولا أن أطلق على نفسى لقب «شاعر الغيط».. ولكنى اكتشفت أن كلمة «الغيط» استعملت استعمالا سيئا.. فهناك «صرصار الغيط».. و«فأر الغيط».. وحتى لا يلتبس لقبى على الناس، بدأت أفكر فى لقب آخر.. ولكن كل الألقاب استولى عليها شعراء غيرى.. شوقى استولى على لقب «أمير الشعراء» ورامى استولى على لقب «شاعر الشباب».. و.. و.. و.. حتى لقب «شاعر الزقازيق»، وجدت أن هناك خمسة من الشعراء قد استولوا عليه قبلى.. وأخيرا قررت أن أختار لنفسى لقب «شاعر الساقية».. فلم يكن يحلو لى أن أنظم الشعر الا وأنا جالس فوق ساقية عم عوضين..

وعندما وصلت الى سنة خامسة ثانوى، اكتشفت فى نفسى أنى لست شاعرا.. ولكنى فيلسوف!

اكتشفت ذلك فجأة؟ فقد كانت أمى تجادلنى لأنى لم أستحم منذ ثلاثة أسابيع، عندما قلت لها: «يا أمى ليس مهما أن نغسل الجسد، انما المهم أن نغسل الروح»!

وكانت هذه الكلمة بمثابة البريق الذى انطلق ليكشف لى عن الفيلسوف القابع فى أعماقى..

وبدأت فى الحال أتخذ هيئة الفلاسفة..

أطلقت شعرى حتى تكوم فوق رأسى، وكسا قفاى، وتهدل فوق أذنى.. وتركت ذقنى، لا أحلقها الا كل أسبوع مرة.. ووضعت لذقنى هذه قاعدة فلسفية، مضمونها: «ان الانسان ملك للطبيعة.. وما تطلقه الطبيعة، لا يصح أن يحلقه الحلاق».. ورغم ايمانى بهذه القاعدة، فقد كنت مضطرا أن أحلق ذقنى كل أسبوع، حتى أتجنب صفعة من أبى.. أبى الذى يمثل الجيل القديم المتحجر العقلية، والذى لا يؤمن بالفلسفة..

واخترت بذلة زرقاء غامقة، لونها أقرب الى السواد.. لم أعد أرتدى غيرها.. ورباط عنق أسود، لا أضع غيره فوق صدرى..

وكنت أعلم أن الفلاسفة كثيرو النسيان.. تائهون فى بيداء الفكر.. وكان يجب أن أكون فيلسوفا كاملا، أن أنسى، وأن أتوه.. وبذلت جهدا كبيرا فى أن أنسى.. ولكن غريبة.. أنى لا أستطيع النسيان.. لم أكن أعرف أن ذاكرتى نشيطة الى هذا الحد.. إنى استطيع أن أتذكر ماذا أكلت فى يوم الثلاثاء الموافق ٢٠ أغسطس من العام الماضى.. ولكن لا يهم.. انى أستطيع على الأقل أن أدعى النسيان.. وان أدعى أنى تائه فى بيداء الفكر.. كان اذا حادثنى زميل التفت اليه فى حركة مفاجئة كأنه أيقظنى من النوم.. أو كأنه جذبنى من بعيد.. عالم الفكر الفلسفى.. وكنت عندما اتجه الى الفصل، انسى وأدخل فصلا آخر.. وأجلس فى أحد المقاعد الى أن ينبهنى أحد الى خطئى، فأتلفت حولى كأنى أفقت من حلم.. ثم أعتذر، واتجه الى فصلى.

وصدق زملائى فى مدرسة الزقازيق الثانوية، انى فيلسوف!

وكان موظفو شركة أتوبيس الشرقية أصدقاء لوالدى.. فكانوا يسمحون لى بأن أركب مجانا كل يوم خميس، الى القاهرة.. وأقضى الليلة عند ابن عمى.. ثم أعود الى الزقازيق ـ فى أتوبيس الشرقية أيضا ـ مساء الجمعة..

وفى القاهرة كنت أذهب الى حيث يذهب الفلاسفة.. ودائما مرتديا بدلتى الغامقة، ورباط العنق الأسود.. كنت أذهب الى مقهى الفيشاوى فى حى

الحسين، وأجلس فى ركن هادىء، أفكر فى صمت.. كالفلاسفة.. وفى صباح الجمعة أذهب الى محل الاكسلسيور وأجلس حيث تعود الأستاذ الفيلسوف توفيق الحكيم أن يجلس.. وكنت أتتبع فى جلستى السيارات الأنيقة، والبنات الجميلات، وتثور فى نفسى حسرة.. واشتهاء.. ولكن لا يهم.. لقد عوضنى الله عن كل ذلك بما هو أجمل وأغلى.. عوضنى بالفلسفة..

والواقع أنى لم أخرج بشىء من هذه الفلسفة.. لم أكن أجد شيئا أبحث فيه، أو أفكر فيه.. ولكنى رغم ذلك كنت سعيدا بأنى فيلسوف، ولى مظهر الفلاسفة..

ونلت الشهادة التوجيهية..

والتحقت بالجامعة..

كلية الآداب .. طبعا..

قسم الفلسفة .. طبعا..

ودخلت الى الجامعة فى اليوم الأول، وأنا مرتدٍ البدلة الغامقة، ورباط العنق الأسود، وشعرى مكوم فوق رأسى، مهدل فوق أذنى، وذقنى غير حليقة..

واتجهت الىّ عيون كل الطلبة..

وشعرت بالسعادة وكل هذه العيون تنظر الىّ .. شعرت أنى انسان متميز، يثير الانتباه والاهتمام.. اهتماما أكثر مما يثيره هذا الزميل الذى جاء يقود سيارة فخمة فارهة.

وازددت تمسكا بمظهر الفلاسفة.

وفى اليوم الأول.. وقبل أن أدخل الى المدرج.. وقعت عيناى على زميلتى بسيمة..يا الله.. كأنها صاروخ روسى صوب الى قلبى..

وأحببت بسيمة.. أحببتها من النظرة الأولى.. أحببت ابتسامتها، والتفاتتها، ومشيتها. وكل ما فيها..

ولكن بسيمة لم تلتفت الىّ..

لعلها لم تنتبه بعد الى أن بين زملائها، فيلسوفا..

وتعمدت أن أدخل المدرج متأخرا. ودخلت فى خطى بطيئة.. ورأسى

مائل على كتفى كأنى أنوء بحمل نظرية أينشتين.. وعيناى زائغتان كأنى أبحث بهما فيما وراء الكون.. واخترت لنفسى مكانا فى آخر المدرج.. بعيدا..كأنى لا أطيق أن يزعج أحد خلوتى.. وجلست، وقد وضعت رأسى فوق كفى، وعقدت ما بين حاجبى، ورحت أفكر فى لا شىء!

لابد أنى أثرت بذلك انتباه بسيمة.. .

وقد ظللت طوال المحاضرة متخذا هذا الوضع الذى رسمته لنفسى، دون أن أملّ، ودون أن أفكر فى أن استريح.. وبعد ان انتهت المحاضرة، انتظرت الى أن خرج كل الطلبة، ثم خرجت وبحثت عن بسيمة، الى أن رأيتها واقفة مع بعض زميلاتها فى فناء الكلية.. فتعمدت أن أمشى أمامها.. مشية الفيلسوف.. خطوات هادئة، ورأسى مائل على كتفى، وعيناى زائغتان..

ولمحتها خلال هذا الأسبوع مرتين، وهى تنظر الىّ.. تنظر الىّ كما تنظر البنات الى الطلبة أصحاب السيارات.. وكانت تنظر الىّ بعينين حزينتين كأنها تواسينى.. ياالله.. أموت فى العيون الحزينة!.

ولم يكن هذا يكفى.. ان حب بسيمة يتمكن من قلبى يوما بعد يوم.. انى لا أنام.. إنى يقظان دائما وأحلم بها فى يقظتى.. أحلم بها وقد جاءت الىّ لأعاونها فى فهم دروسها.. وتوسلت الىّ أن آخذها الى دنياى.. دنيا الفلسفة والفكر..

وكان يجب أن أجذبها الى أحلامى.. أن أغريها بفلسفتى..

وفى احدى المحاضرات، وقفت فجاة أقاطع الأستاذ، وقلت كلاما كنت قد أعددته.. قلت فى لهجة رزينة كأنى أقرر مستقبل الكون «لقد أخطأ أفلاطون.. ان الفضيلة هى فضيلة الفكر لا فضيلة الروح»..

وكنت أنتظر أن يصفق زملائى.. ولكنهم لم يصفقوا.. لعلهم لم يسمعونى.. وهممت أن أرفع صوتى مرددا كلمتى.. ولكن الأستاذ عاجلنى قائلا: «اقعد يا أستاذ.. المناقشة بعد المحاضرة»!.

وأدار بعض الطلبة رؤوسهم الىّ، ولكن بسيمة لم تلتفت.. لا يهم.. لا بد أنها سمعت كلمتى وانبهرت بها..

ومضى أسبوع آخر..

وأنا لا زلت ألوح لبسيمة برداء الفيلسوف.. ولكن شيئا لا يحدث..
وأخيرا قررت أن أجازف..
يجب أن أعمل عملا عظيما، لا تستطيع أن تقاومه بسيمة..
ماذا أفعل؟
لست أدرى..
الى أن كان يـوم.. وكنت خارجا من الكلية.. واجتـزت الفناء، ووصلت الى الشارع.. ولمحت بسيمة واقفة.. فسرت أمامها.. فيلسوفا.. خطواتى هادئة، ورأسى مـائل، وعينـاى زائغتـان. ثم فجأة تـذكـرت أن الفـلاسفـة دائما ينســون، ودائما تائهـون فى بيداء الفكـر.. وهم لـذلك معرضــون لحوادث الطريق.. لـو حدثت لى الآن حادثة.. لـو صدمتنى سيارة.. لتأكـدت بسيمة أنى فيلسوف.. وجاءت لتعيش معى فى فلسفتى..
ورأيت سيـارة قادمـة.. وبلا تردد، وبـلا خوف.. سرت وقطعـت عليها الطريق.. وضغط السائق على الفرامل ضغطة قـوية، زحفت بعدها السيارة وهى تصدر صريرا حادا كأنه الصراخ..
وسمعت صرخة أخرى..
صرخة فتاة.. لابد أنها صرخة بسيمة..
وابتسمت.. لقد أفلحت الخطة.. ولم تكن السيـارة قد مستنى.. الرفرف احتك ببنطلونى.. هذا هو كل شىء..
والتفت خلفى.. لأتلقى نظـرة الجزع من عينى بسيمـة.. وأتلقاهـا وهى تهرع الىّ لتطمئن على سلامتى.
ولكن بسيمة لم تكن موجودة..
كانت قد ذهبت..
وسائق السيارة يلعن سنسفيل جدودى.
ومضى أسبوع ثالث..
ورأيت بسيمـة واقفـة فى فناء الكليـة مع زميل أعـرفـه. زميل من أبنـاء الـزقازيق.. فـاتجهت اليهما.. وكـان هذا هـو الحل الأخير.. ووقفت معهما، وقدمنى زميلى اليها:
— الأستاذ دسوقى..

وانطلقت ابتسامتها الحلوة..
ثم قدمها الىّ:
— الآنسة بسيمة.. زميلتنا.
ثم ما لبث زميلى أن تـركنا وانصرف.. وخفت أن تنصرف بسيمـة أيضا، فأخذت أحـدثها عن المحاضرات والفلاسفـة، حديثا عميقا جادا — حديث الفلاسفـة - لا بـد أنها تمتعت به، بـدليل انها استمعت اليه.. ثم قـالت وهى تنظر فى وجهى..وإلى شعـرى المكوم فـوق رأسـى، وذقنى النابتـة، وبدلتى الغامقة، ورباط العنق الأسود:
— انت والدك توفى امتى؟
ودهشت لسؤالها.. فوجئت به، وقلت متلعثما:
— والدى؟!
وقالت:
— أصلى دايما شايفاك حزين ولابس كرافتـة سودة، الطلبة قالوا لى إن والدك توفى..
وكأنها طعنتنى.. كل هذا .. ولست فيلسوفا .. كل ما هنالك أن والدى توفى!!
ولا أدرى ماذا دهانى ساعتهـا.. لم أستطع أن أقول لها أنى أرتدى ثياب الفلاسفـة.. وأنى أترك شعرى وذقنى ، وأضع رباط عنق أسـود ؛ لأن هذه هى طبيعة الفلاسفة .. ولكنى وجدت نفسى أوافقها، وأقول دون أن أدرى:
— مات الشهر اللى فات.. لسه ما فتش الأربعين!
وقالت فى صوت حزين:
— البقية فى حياتك..
وقلت وأنا أشد حزنا:
— حياتك الباقية..
واستأذنت سريعا،و تركتها..
وفى نفس اليـوم، ذهبت الى الحلاق، وحلقت شعـرى، وذقنى.. ووضعت كولـونيا.. وأحضرت من الزقـازيق بذلتى البيضـاء.. شـارك سكين.. ورباط عنق أحمر..

●●●



لماذا تزوجتها ؟



كنت أعلم انها ستموت..
ورغم ذلك تزوجتها..
تـزوجتها وملاك يطـوف حـول فراشهـا الأبيض، ويهز أجنحتـه فـوق عينيهـا الـزائغتين، ويبصم فـوق جبينهـا العـالى بأصابعه العشر..

ولم أتزوجها شفقة بها كما تصور البعض.. ولم أتزوجها لأنى سبق أن وعدتها بالـزواج.. ولم أتزوجهـا طمعا فى ميراثهـا كما قال النـاس عندمـا احتاروا فى أمـر زواجى بها، ثم لم يجدوا سببا يقنعون به عقـولهم الضيقة إلا أن يقولوا انى طمعت فى ميراثها..

لا.. انكم لن تعرفـوا أبدا قصـة زواجى بها، إلا إذا رويتها لكم بنفسى.. وسأرويها.. لا ارضـاء لكم، ولكن فقط لأنى أحب أن أتحدث عنهـا.. لأنى أجد فى الحديث عنها تنفيسا عن الصهد المتجمع فى صدرى، وعن النار التى تسرى فى أوصالى..

لقد التقيت بها منذ خمس سنوات..

كـانت أيامهـا شابـة يمرح الجمال والصحـة فى اعطافهـا.. وتحمل من الحياة أكثر مما يطيق جسدها الصغير الانيق.. شابة تعطى.. تعطى دائما.. تعطى المرح، والحب ، والأمل، والجمال..

تعطى كل من حـولها.. كأنها تحمل خزانـة سحـرية مملـوءة بالحيـاة، لا تفرغ أبدا..

وأحببتها ..

وأحبتنى..

ولا أدرى متى بدأت أغار عليها.. ربما بدأت اغار عليها منذ اللحظة التى احببتها فيهـا.. ربما قبل ذلك.. قبل أن أحبها.. كنت أغـار عليها عنـدما أرى صورتها منشورة فى الصحف.. عندما اسمع اسمهـا يتداوله الناس.. عندما ألمحها من بعيد فى احد المنتديات الساهرة، وابتسامتها تسع الناس جميعـا،

وعيناها تصب السـحر فى قلوب كل النـاس .

ولعلكم يجب أن تعرفونى، حتى تقـدروا كيف احببتها، وكيف كنت أغار عليها..

أنا شـاب عشت حياتى فى مجتمع منحل، يمسـى ويصبح فى الخطيئة.. يسبح فى بحر من الخمر.. ويقتات بالأجساد، ويملأ أذنيه بموسيقى تنسيه عقلـه.. وكانت هـوايتى فى هـذا المجتمع سرقـة الزوجـات.. أتسلل بقـامتى الطويلة وبشرتى السمراء، وشبـابى الهائل، وأسرق.. أسرق بسهولة.. دون أن أحس بمتعة إلا بمتعة السرقة..

ولكنى عنـدمـا تقـدمـت إليهـا، لم أحس بـأنى أسرق.. على العكس.. احسست انى سرقت.. فقـد شـىء منى.. قلبى.. عقلى.. شبـابى.. انها المرة الأولى التى أحس فيهـا بـأنى لست السـارق.. ولكنى المسروق.. وهـذا الاحسـاس دفعنى إلى احسـاس آخـر.. دفعنى إلى الاحسـاس بأنها أقـوى منى.. أنا الضعيف وهى القوية.

ولأنى ضعيف بدأت أغار.

لم أكن أغار على امرأة من قبل.. كان كل النساء يغرن علىّ، وأنا لا أغار.. كنت دائما واثقا من نفسى.. واثقا بقـوتى.. واثقا أن احدا لايجرؤ أن يعتدى علىّ.. واثقـا من أن ليس هناك امـرأة يمكن أن تخوننى، أو يمكن أن تشتهى غيرى.

لكن .. هى كانت أقوى منى.

هى ، مزقت ثقتى بنفسى ..

هى .. جعلتنى أعرف الغيرة.

وفكرت من فـرط غيرتى عليها أن أتزوجهـا.. لم يكن قد انقضى ثـلاثة شهور على لقائنا عندما بدأت أفكر فى الزواج بها..

ولكن هل استطيع أن أتزوجها ؟!

هل استطيع بعد أن فقدت ثقتى بنفسى، وبقوة شخصيتى؟

هل استطيع وأنا مقتنع بأنها أقوى منى؟

لا ..

وإذا كنت أخاف عليها وهى عشيقتى، فمن الأولى أن أخاف عليها وهى زوجتى.. فإن سرقة الزوجات أسهل من سرقة العشيقات.. وإن كنت لا أثق فى نفسى وأنا عشيق، فمن الأولى ألا أثق فى نفسى وأنا زوج.. فإن خداع الزوج أسهل من خداع العشيق.

وبدأت الغيرة تستبد بى، وتأخذ مظهرا أشبه بالجنون.. جنونى وأنا أحاول أن أبدو أقوى منها، وان أغلب شخصيتى على شخصيتها.. فآمرها واستبد بها، واظلمها.

وكانت تحبنى..

وكانت تطيعنى..

ورأيتها جميلة، فحرمت عليها أن تضع المساحيق على وجهها، حتى تبدو أقل جمالا.. ولكنها عندما أزالت المساحيق، بدت أكثر جمالا.. وأقوى منى.

لقد كانت تكشف عن ذراعيها وصدرها.. فقررت أن تغطى ذراعيها وصدرها، وعندما فعلت، رأيتها أكثر فتنة، وأقوى منى!!

وغرت عليها من عيون الرجال التى تلتهمها كلما ذهبنا إلى حفل أو سرنا فى طريق .. فحبستها فى بيتها.. فأصبحت أشعر وأنا أنظر إليها كأن آلافا من العيون الأخرى تنطلق من رأسى وتنظر إليها معى.. عيون لا أعرفها.. عيون كل الرجال..

انها لا زالت أقوى منى..

وأنا فى خلال ذلك أفكر فى الزواج بها كل يوم.. ثم لا استطيع.. لا استطيع أن أعدها بالزواج.

انى أضعف من أن أتزوجها..

أضعف من أن أكون زوجا لها..

أضعف من أن اسيطر عليها..

ومرت خمس سنوات.. وأنا أحبها هذا الحب.. وهى تحبنى هذا الحب.. لم تخدعنى يوما.. ولم تخنى.. ولم تعص لى أمرا.. ولكنها كانت دائما أقوى منى.. إلى حد انى لم أكن أستطيع أن أصدق ان كل هذه القوة تحبنى..

وتخلص لى.. وتخضع لى..

ثم بدأت تشعر بآلام..

ولم أصدق انها مريضة.. إن كل هذه القوة لايمكن أن تمرض.. ولا أن تضعف.. ان قوتها هى قوة الحياة نفسها.. والحياة لايمكن أن تهفت، ولا أن تقف.

واشتدت الآلام..

وربما بدأت الدماء تذوب من تحت وجنتيها.. وربما بدأت شفتاها تمتقعان.. ولمعان عينيها يخبو.. وجسدها يذوى.. ولكنى كنت أراها أكثر جمالا.. وأشد فتنة .. وأقدر على العطاء.. وكانت دائما أقوى منى.. وكانت قوتها لا تنبعث منها، ولكنها كانت تنبعث من نفسى.

ثم تركتها وسافرت فى بعض أعمالى.

وعدت ..

ووجدتها فى المستشفى.

ونظرت إليها فى هلع.. انها بيضاء فى لون ملاءة السرير الذى ترقد عليه.. وليس على وجهها قوة ولا ضعف.. على وجهها لا شىء.. ورائحة غريبة تحيط بها.. كرائحة عطر قديم.. رائحة الموت.

وفتحت عينيها ونظرت إلىّ.. نظرة لم أر فيها شيئا.. لم يكن فى عينيها سوى ماء.. ثم همت بأن تقوم من رقدتها وهى تمد إلىّ ذراعيها.. ولكنها لم تستطع.. سقط جسدها.. وسقط ذراعاها.

وفى هذه اللحظة..

فى هذه اللحظة فقط.. شعرت انى أقوى منها..

واسقطت نفسى بجانبها على الفراش، ووضعت ذراعى حولها، واحتضنتها بعنف.. لم أكن أحس ساعتها بحزن ولا بلوعة، بل كنت أحس انى احميها.. احميها من الموت.. احميها لأنى أقوى منها.

وصرخت :

— المأذون .. استدعوا المأذون..

انى الآن استطيع أن أتزوجها .. انى أقوى منها.. ولن يستطيع احد أن

يأخذها منى.. ولن أغار عليها.

وجاء المأذون..

وارتسمت ابتسامة ضعيفة على شفتيها.. ابتسامة أنا الذى منحتها لها.. أنا الذى اعطيتها لها.. انها الآن لاتستطيع أن تعطى.. أنا الذى أعطى.

وكانت آخر ابتسامة ارتسمت على شفتيها.

هكذا تزوجتها..

وقولوا أى شىء..

قولوا انى مجنون.. قولوا انى أنانى.. قولوا انى سافل..

قولـوا أى شىء.. فإنكم مهما قلتم فلن تقولـوا أكثر مما أقـوله لنفسى.. ولن تعذبونى أكثر من عـذابى لنفسى.. عذاب الندم لأنى عشت معها خمس سنوات دون أن أجد فى نفسى القوة لأتزوجها..

أتدرون ؟ ..

انى لا زلت أحس انها أقـوى منى.. حتى وهى فى قبرهـا.. احسـاسى يؤرقنى، ويكاد يصل بى إلى الجنون.



الجحيم



كنت وأنا صغير أجلس مع أمى وصديقاتها وأسمعهن يتحدثن عن بنات أخى اللاتى بلغن سن الزواج ولم يتزوجن بعد.. وكان حديثهن يبدو خطيرا كأن كل بنت من هؤلاء البنات قد وقعت لها قصة.. كأنها انتهت من الحياة.. ماتت !.

وكان فى الحى ثلاث شقيقات لم يتزوجن.. ورغم أن كبراهن لم تكن قد جاوزت العشرين من عمرها، الا أن أمى وصديقاتها كن يتحدثن عنهن كأنهن توفين الى رحمة الله.. وكنت أسمع أمى تقول وهى تمصمص شفتيها:

— كبدى عليهم وعلى امهم.. دى مصيبة.. مصيبة يا اخواتى.. هوّ فى مصيبة أكبر من البنت البايرة.. يقطع البنات وخلفتهم..

وينشق قلبى الصغير وأنا أسمع هذا الكلام..

ويجتاحنى شعور جارف بأنى يجب أن أنقذ الشقيقات الثلاث من المصيبة التى كتبت عليهن.. وأفكر فعلا فى انقاذهن.. ويقودنى تفكيرى الى أن أتمنى لو كنت شابا يصلح للزواج.. لتزوجتهن.. لتزوجت الشقيقات الثلاث.. الثلاث مرة واحدة.. بل لتزوجت كل بنات الحى اللاتى فاتهن سن الزواج.. حتى أعيدهن الى الحياة!.

وظل هذا الشعور يملأ قلبى دائما، وكلما قابلت بنتا كبيرة لم تتزوج بعد، أحسست نحوها بحنان غريب لعله شفقة.. شفقة قوية.. تكاد تدفعنى الى البكاء..

الى أن بلغت السادسة عشرة من عمرى. وجاءت روحية وسكنت فى الحى، فى البيت الملاصق لبيتنا..

وكانت روحية وقتها فى الرابعة عشرة.. تصغرنى بعامين..

وليست جميلة.. ليست جميلة أبدا.. أنفها ضخم.. وشفتاها جافتان.. وعيناها مفعصتان.. تضع فوقهما نظارة طبية سميكة.. وبشرتها فى لون

الطين الأزرق.. وشعرها أكرت.. وعظامها بارزة من كل قطعة فى وجهها وجسدها..

انى أشعر بالقسوة وأنا أصفها..

انها قسوة فعلا.. ولكنها الحقيقة..

وقد شعرت بقلبى ينشق عندما رأيت روحية لأول مرة. ما ذنبها يا ربى.. ما ذنبها لتحرمها من الجمال.. لترسم غضبك على وجهها..

وسمعت أمى تتحدث عن روحية وتمصمص شفتيها قائلة:

— ودى مين يتجوزها يا اختى.. مش ممكن.. حقها من دلوقت تعمل حسابها.. تكمل تعليمها وتشتغل.. كبدى عليها وعلى أمها.

وازداد شق قلبى اتساعا.

ووجدت نفسى أهتم بروحية اهتماما غريبا.. كنت انتظرها كل يوم بعد أن أعود من المدرسة الى أن تنزل الشارع لتلعب مع بنات الحى وصبيانه، فالازمها فى لعبها.. ثم أصبحنا ـ هى وأنا ـ لا نلعب مع البنات والصبيان، بل ننزوى معا.. وأجلس اليها أحدثها وتحدثنى..

وكانت روحية نفورة، قاسية فى كلماتها، قاسية حتى فى الطريقة التى تعبر بها عن فرحتها بى.. كانت تقرصنى مثلا فى ذراعى كلما أرادت أن تدللنى.. قرصة قاسية من أصابع جافة تؤلمنى.. ولكنى كنت أحتمل نفورها وقسوتها.. وأحاول أن أقنعها أن نفورها تدلل، وقسوتها نوع من خفة الدم.. وكنت أحتمل أيضا قبحها.. كنت لا أنظر اليها فى وجهها، لأنى كنت أخشى إن نظرت الى وجهها أن يبدو علىّ الجزع، أو لا أستطيع أن أظل محتفظا بمظهر الاعجاب بها.. تماما كما تتعمد الا تنظر الى شخص أعور فى عينه العوراء، حتى لا تشعره بعاهته.. ولذلك تعودت أن أنظر اليها، دون أن تتوقف عيناى على وجهها، مجرد نظرات عابرة سريعة..

وأكثر من ذلك..

لقد كنت جالسا معها يوما على السلم المؤدى إلى حديقة منزلنا، وكانت فى يدى مجلة، أخذتها منى وبدأت تتصفحها، فلاحظت أنها ـ لضعف بصرها ـ تقرب الصفحات من عينيها الى حد أن يلامس أنفها الصفحة..

ثم.. عندما بدأت أقرأ معها فى المجلة، أخذت أقلدها.. أقرب الصفحات من عينى الى حد أن تلامس أنفى.. وكانت عيناى تؤلمانى وتدمعان وأنا أقرأ بهذه الطريقة.. ولكنى احتملت الألم والدموع، حتى لا أشعرها بنقصها، وحتى لا تشعر بأنها وحدها العمشاء.. وزدت على ذلك، بأن بدأت أشكو من ضعف بصرى أمامها، ثم أمام أهلى.. ثم بدأت أطالب أهلى بأن يأخذونى الى طبيب عيون ليصنع لى نظارة طبية.. وعند طبيب العيون.. كذبت .. ادعيت ضعف البصر، وأصبحت أخطىء متعمدا فى العلامات التى يختبر بها بصرى.. وأخيرا اضطر الطبيب أن يصنع لى نظارة.. وكانت نظارة تجلب لى الصداع كلما وضعتها فوق عينى ولكننى كنت أحتملها، وكنت أضعها دائما فوق عينىّ، كلما التقيت بروحية.. وقد فرحت روحية بنظارتى.. فرحت فرحة كبيرة.. كأنى دخلت دنياها!

الى هذا الحد بلغ اهتمامى بروحية..

وكنت أعتقد أن هذا الاهتمام سيحل عقدتها.. سيرضيها.. فأنا أبرز صبيان الحى.. أكثرهم وسامة، وأغناهم عائلة.. واهتمامى بأى فتاة يضعها على رأس الحى كله.. وربما كان هذا الاهتمام قد أرضى روحية فعلا، وحل عقدتها.. ولكنى كلما ازددت اهتماما بها، ازدادت قسوة علىّ.. قسوة لا مبرر لها.. كانت تضربنى أحيانا.. تضربنى بغلّ كبير.. كأنها تنتقم منى على اهتمامى بها..

وظللت احتمل قسوة روحية علىّ.. ومرت سنوات طويلة حتى أصبح اهتمامى بروحية، نوعا من المسئولية التى تعودتها.. وكنت أحيانا أضيق بهذه المسئولية، وأحس بعبئها ثقيلا على صدرى.. ثقيلا على أيامى كلها.. وأفكر فى التحرر منها.. من المسئولية.. ولكنى لا أستطيع.. أحس كأنى لو تخليت عن روحية فكأنى أقتلها.. كأنى أطردها من الحياة.. انها لن تجد أبدا أحدا غيرى يرعاها ويهتم بها، ويعطيها نصيبا من السعادة.. نصيبا من الحياة.. وينشق قلبى، فأعود أحمل المسئولية.. مسئولية منح روحية نصيبها من الحياة، حتى لا تعيش عانسا.. بايرة.. وحتى لا تمصمص أمى شفتيها شفقة عليها..

ومضت خمس سنوات..

ونلت بكالوريوس التجارة، واشتغلت فى احدى الشركات.. وبدأت روحية تنظر الىّ وكأنها تنتظر منى كلمة..

انها تريد الزواج..

وترددت..

وظللت مترددا حتى واجهتنى روحية بطلب الزواج صراحة.. وحاولت أن أستمر فى ترددى.. التمست كل الأعذار.. قلت لها أننا يجب أن ننتظر حتى يزداد مرتبى.. وقلت لها أن أمى تخطب لى ابنة عمى، ويجب أن ننتظر حتى أقنع أمى بأنى لن أتزوج ابنة عمى.. و..و..

ورفضت روحية كل هذه الأعذار.. رفضتها بقسوة.. وخاصمتنى.. غابت عنى..

هل حمدت الله لأنها أعفتنى من مسئوليتها؟

هل احتملت غيبتها عنى؟!

لا .. لم أحتمل ..

هل أحبها!!

وهل هى مجرد عادة تعودت عليها، وأصبحت قطعة من حياتى؟

لا أدرى.. لا أدرى.. ولكنى لم أطق خصامها ولا غيبتها..

وحاولت أن أقاوم..

وقاومت فعلا أسبوعين، أو ثلاثة.. ولكنى كنت أشعر بأن مقاومتى تنهار.. وكنت أعلل انهيارى بأنى مسئول عن روحية، ولا يجب أن أتخلى عنها.. وأنى لو تخليت عنها فكأنى أطردها من الحياة..

و..

وعدت اليها صاغرا، أطلبها للزواج..

ولطمت أمى خديها.. وجن أبى.. انهما لا يرونها زوجة لى.. هذه القبيحة.. الشوهاء.. الزرقاء.. العمشاء.. بارزة العظام.. وصرخت أمى فى حرقة:

— يا ابنى فتّح وبص لها كويس.. ده عمل واتعمل لك يا حبيبى..

ولكنى تحديت أبى وأمى..

تحديت دهشة أهل الحى كلهم، وأحاديثهم الساخرة..

وتزوجتها..

وانتقلت..

وانتقلت الى الجحيم..

• منذ اليوم الأول الذى عشت فيه مع روحية فى بيت واحد، عرفت الجحيم..

كل شىء حولى قبيح.. هى.. وكلامها القاسى الجارح.. والبيت.. انها لا تضحك الا نادرا.. ولا ترضى بشىء.. ولا تحمد الله على شىء.. دائما شرسة.. دائما ساخطة.. دائما كشرة.. انها تضربنى أحيانا..

و..

وحملت روحية ..

وانتظرت المولود بلهفة وشوق.. لعله يخفف من قسوة روحية.. لعله يضع بعض الحنان فى قلبها الجاف.. لعل الأمومة تثير فيها بعض الأنوثة.. لعل البيت يبتسم بعد طول العبوس..

وجاء المولود..

جاء ميتا..

ولد مشوها، ناقص القلب..

ولم يكن آخر مولود.. لقد حملت روحية بعد ذلك مرتين.. وفى كل مرة تضع مولودا مشوها، وأطولهما عمرا لم يعش أكثر من يومين..

وأنا صابر ..

صبر أيوب..

أعود الى روحية كل يوم وفى يدى قرطاس فاكهة.. وأدعو الله طول الطريق أن تبتسم لى.. ولو ابتسامة صغيرة..

ولم تكن روحية تبتسم الا نادرا.. وتضحك أحيانا فى حالات أندر..

أتدرى متى كانت تبتسم أو تضحك؟

عندما تقع لى مصيبة.. عندما سقطت مرة فى الحمام وكادت رأسى

تتهشم.. وعندما انسكبت القهوة الساخنة على يدى فأحرقتها..

مثل هذه الحوادث كانت تثير ابتسامتها وضحكها.. وكانت تمر أيام اتمنى أن تقع لى حادثة حتى أراها تبتسم أو تضحك..

كل هذا، ولم أفكر يوما فى أن أترك روحية أبدا.. كنت أحس بالجحيم.. بالعذاب.. بالقبح الذى يحيط بى. ولم أفكر يوما فى الطلاق..

ثم ..

بدأت تصرفات روحية تتغير بعد ثلاث سنوات من زواجنا.. أصبحت تكثر فى الخروج من البيت.. بل أصبحت أحيانا تخرج فى المساء وتعود فى ساعة متأخرة.. فى التاسعة.. أو العاشرة.. وكنت كلما حاولت أن أعترض، صرخت فى وجهى، وأطلقت على جحيمها.. وتضربنى أحيانا!.

وكان يوم ..

وشعرت بمغص مفاجىء وأنا فى مكتبى فى الشركة، فاستأذنت من رئيسى، وعدت الى البيت.. متعبا.. مصارينى تتلوى.. ومعدتى مقبوضة.. وفتحت الباب بمفتاحى الخاص. ودخلت بيتى، وأنا أكاد أنكفىء فى خطاى.. ولا أستطيع حتى أن أصيح مناديا روحية..

واتجهت الى غرفة النوم..

كل ما أريده أن ألقى بنفسى على السرير..

وكان باب غرفة النوم مقفلا..بلا مفتاح.. وفتحته . ثم وقفت مذهولا.

رأيت رجلا..

رجل فى فراشى، ومعه روحية.. زوجتى..

ووقفت فاغرا فمى.. ونسيت ألم مصارينى.. كل ما أحس به هو أن زورى مسدود كأن فيه حجرا.. كأنى أعانى كابوسا لا أستطيع أن أصرخ خلاله..

وقبل أن أفيق من الدهشة.. قبل أن أتكلم.. رأيتها تقفز من فوق الفراش وتصرخ فى وجهى:

— ايه اللى جابك دلوقت.. امشى اطلع بره.. بره.. بره..

وأخذت تدفعنى بيديها وهى تكرر كلمة بره.. بره.. وأنا أنظر خلفى

أحاول أن أتعرف على الرجل الراقد فى فراشى..
وخرجت..
طردتنى روحية من بيتى..
من الجحيم..
وذهبت الى أمى، ورويت لها ما حدث.. وأنا أبكى.. وصرخت أمى:
— طلقها..
وأبى صرخ:
— طلقها.
وأختى تصرخ:
— طلقها..
وأذناى ليس فيهما الا كلمة واحدة.. كلمة كبيرة.. ضخمة.. مفزعة.. طلقها.. طلقها..
ثم أتوا بالمأذون..
وطلقتها..
وسقطت مريضا..
وأمى لا تغادر فراشى كأنها تخاف علىّ من أن أفر منها وأعود الى روحية.. وحتى بعد أن شفيت كانت أمى لا تتركنى لحظة، وأبى يأخذنى كل يوم الى الشركة فى الصباح، ويعود ويمر علىّ بعد أن ينتهى من عمله ليأخذنى معه الى البيت.. حتى لا أعود الى روحية..

●●●

أتدرى ماذا حدث بعد ذلك؟
لقد تزوجت روحية من عشيقها..
يبدو أننى لست الوحيد الذى ينشق قلبه عندما يرى فتاة ليس لها نصيب فى الحياة!!

●●●



الساحر



كـان للست تـوحيـدة قضيـة فى المحكمـة الشرعية.. قضيـة نفقة.. وقضيـة حضانـة.. ولم تكن تكتفى بحضور الجلسات التى تنظر فيهـا قضيتها، فقـد اعتبرت أن من حقهـا بما انها صاحبة قضية، أن تتردد على المحكمة كل يـوم.. وان تتعــرف إلى جميع كتبة المحكمة، وجميع موظفيها، وجميع السعاة، وجميع القضاة.. وجميع المتقاضين أيضا!!

أصبحت المحكمة هى مكانها المختار..

والست توحيدة فى الخامسـة والثلاثين من عمرها.. تبـدو آثار النعمة فى جسدها المكتنـز السمين.. وفى الأساور الذهبية التى تغطى سـاعديها حتى مـرفقيها.. ووجههـا مستديـر.. قمر.. وعينـاها سـود يظللهما كحل ثقيل.. وفمهـا صغير.. كخاتم سليمان.. وحـديثهـا حلو كفتـافيت السكـر.. وهى كريمة. لا تبخل بشىء من مالها.

وكان كل موظفى المحكمة يحتفون بها، ويستزيدونها من حديثها، ومن زياراتها.. ويـروون لها قصصهم.. قصص حياتهم الخاصـة مع زوجاتهم وأولادهم.. وتقدم إليها أكثر من واحد منهم يطلب الزواج منها.

وكانت ترفض، وهى تضحك ضحكة رنانة، رنين الذهب.

ولكن ..

كان هنـاك واحد فقط من بين موظفـى المحكمة، لا ترفض الـزواج منه.. لو أراد يوما أن يتزوجها.

انه محمد أفندى عبدالله.

ولكن محمد أفنـدى عبدالله لايفكر فى الـزواج منها.. انـه حتى لا يتقرب إليها.. ولايحاول أن يفهم سر نظراتها إليه، وسر تـوددها، وسر نصف دستة الكرافتـات التى أهدتها له، فأعـادها إليها، ورفض أن يلمسهـا.. انه يجلس خلف مكتبـه بقامتـه الطـويلة، ووجهـه الأسمر القـوى، وشـاربه الـرفيع

المقصوص.. وينظر إليهـا، كأنه يستغفر الله.. ويديـر ظهره لها كلما دخلت إليه.. ويتأفف!

انها تحب محمد أفندى عبدالله..

تحبه موت ..

وتقضى الليل تتوجع، والنهار تتـوسل إليه بعينيها.. بل انها تسير خلفه بعد أن ينتهى موعد العمل فى المحكمة، حتى تراه يدخل بيته.

وهى تعلم أنـه متـزوج، ولـه أولاد.. وزوجتـه عجفـاء فقيرة، ليست فى جمالها ولا فى غناها.. انها ترفض أن تصدق أن محمد أفندى يحب زوجته.. يحبهـا إلى حـد انه يأبى أن يتـزوج عليهـا.. خصـوصا إذا كـان سيتـزوج توحيدة الجميلة الغنية.. صاحبة العمارة!!

ولكن محمد أفندى لايزال يتدلل وهى تتعذب..

لم تعد تطيق نفسها.. ولا حياتها..

لماذا لا تسحر له؟!

لن يفتح قلب محمد أفندى إلا السحر!

وذهبت الست توحيدة إلى رجل يرتدى ثياب قسيس ويقيم فى بيت عتيق بحى مصر القديمـة.. وروت له قصتها.. وعذابها.. وهى تـريده أن يفتح لها قلب محمد أفندى.

وطمأنها القسيس..

وأخذ منها خمسة جنيهات.

ثم صنع أمامهـا ساقية صغيرة من الخشب، كلعب الأطفـال.. ووضعها فى صندوق.. ثم أتى بفأر صغير، وغمى عينيه بعصابة صغيرة من القماش، وعلقه فى الساقية.

وبدأ الفأر يدور فى الساقية..

وابتسم القسيس.. واقسم لها انها ستجد محمد أفندى ـ فى خلال سبعة أيام ـ يدور حولها، كما يدور هذا الفأر فى الساقية..

وصاحت توحيدة :

ــ ربنا يسمع منك يا ابونا!!

ومرت خمسة أيام.. وهى تذهب إلى المحكمة كل يوم، ومحمد أفندى يدير لها ظهره.. ويتأفف.. وتخرج من المحكمة وتذهب إلى القسيس لتتأكد من أن الفأر لايزال يدور فى الساقية..

وفى اليوم السادس دخلت الست توحيدة إلى الغرفة التى يجلس فيها محمد أفندى بين بقية زملائه الموظفين.. ونظرت إليه فى تردد، وهى تنتظر أن يدير ظهره لها ويتأفف.. ولكن لا.. انه يبتسم لها.. واهتزت رموشها كأنها لا تصدق عينيها..

ولكنه يبتسم.. يبتسم لها.. وفى ابتسامته بعض الحياء والتردد، كأنه عاشق..

لقد بدأ الفأر يدور حولها..

وأقبلت عليه بكل قلبها، وكل حرمانها الطويل، وقام يستقبلها، ويصافحها بحرارة..

وقال وابتسامته لاتزال بين شفتيه وصوته يرتعش :

— ازيك ياست توحيدة.. الحقيقة الواحد مابيعرفش أن اليوم ابتدا إلا بعد مايشوفك ..

ورفرف قلب توحيدة، وقالت وأنفاسها مبهورة :

— والنبى جد ياسى محمد..

وقال محمد :

— ودى عايزة حلفان ياست توحيدة..

وقالت توحيدة :

— أصلك ياخويا عمرك ما قلت لى كلمة حلوة من الكلام ده.. طول عمرك تدينى ضهرك، ولا تسأل فىّ ولا عليّه ..

واحمر وجه محمد أفندى، وقال :

— بس مشاغل ياست توحيدة..

وبحلقت توحيدة فى وجهه كأنها تأكله بعينيها.. ودهشت وهى ترى وجهه يصطبغ بحمرة الخجل والارتباك.. انها لم تكن تعتقد انه خجول رقيق إلى هذا الحد.. من يدرى، ربما كان السحر هو الذى جعل منه هذا الرجل الخجول.. يا ما أنت قادر يارب!!

وشدت الست توحيدة مقعدا وجلست بجانب مكتب محمد أفندى.. وبدأت تتحدث كأنها تفتح له قلبها.. وتعمدت أن تحدثه عن وحدتها.. وحدتها فى بيت ليس فيه رجل يحوطها برعايته وحنانه، ويجمع لها ايراد العمارة من السكان الملاعين، ويتولى عنها قضاياها الكثيرة.. وكانت تتحدث وعيناها تغمزان له، وحاجباها يشيران إليه فى حركات جريئة كأنهما يدعوانه إليها..

ومحمد أفندى صامت..

ووجهه مصبوغ بحمرة الخجل..

وكان أحيانا يهم بالكلام، ثم يعدل، ويصمت، كأن ما يريد قوله أكبر من أن يحمله لسانه..

وأزف موعد انصراف الموظفين.

وخرجت الست توحيدة، وأسرعت إلى مصر القديمة، وذهبت إلى الرجل الذى يرتدى ثياب القسيس، وصاحت ووجهها يتهلل من الفرح :

— الفار الكبير ابتدا يدور فى الساقية.. ربنا يزيدك من قدرته يابونا.. بس اسمع أنا عايزاك تغمى عنيه أكتر وأكتر.. مش عايزاه يشوف مراته ولا يطيق يشوفها.

ووضعت يدها فى صدرها وأخرجت منه خمسة جنيهات اعطتها للقسيس..

وتناول الرجل الجنيهات الخمسة، ثم وضع عصابة أخرى على عينى الفأر الذى يدور فى الساقية، داخل الصندوق..

وعادت الست توحيدة إلى المحكمة فى اليوم التالى..

واستقبلها محمد أفندى استقبالا أكثر حرارة، وطلب لها زجاجة بيبسى كولا.. ثم جلس، وهو أشد ارتباكا من الأمس.. وحمرة الخجل تكسو وجهه.. وتوحيدة تحدثه عن وحدتها، وعن البيت الذى يحتاج إلى رجل..

وعادت توحيدة فى اليوم الثالث..

وفى اليوم الرابع ..

وفى كل يوم تزداد اطمئنانا إلى أن الفأر يدور فى الساقية.. ومحمد أفندى لا يزال مرتبكا. ولا يزال يهمّ بالكلام ثم يعدل.. وتوحيدة تشجعه.. بل انها تعمدت أن تلمس ساقه بساقها.. لعله يتجرأ، ويفصح عما فى قلبه.. ويطلبها للزواج..

وأخيرا تكلم محمد أفندى..

وقال وعيناه منكستان :

— الحقيقة أنا قاصدك فى حاجة ياست توحيدة.. انما مش عارف أقولها ازاى.

وقالت توحيدة كأنها تزغرد :

— قول ياخويا قول.. قول ياسى محمد.. كل حاجة تحت أمرك ورهن اشارتك.. بس قول يا اخويا..

وازداد ارتباك محمد أفندى وازداد تلعثمه، وقال وهو يعبث بزرار سترته :

— أصل انت عارفة انى متجوز وعندى أولاد.. و..

وقاطعته الست توحيدة صائحة :

— وماله ياخويا.. ده حقك الشرعى.. ماحدش يقدر يلومك أبدا..

والتفت محمد أفندى إلى زملائه كأنه كان يخشى أن يسمعوا حديثه، ثم قال وهو يزفر فى حرقة :

— معلهش .. خليها يوم تانى ياست توحيدة!

وكادت توحيدة تجن.. انها لم تعد تطيق أن تنتظر أكثر مما انتظرت.. لم تعد تطيق أن يظل الفأر يدور فى الساقية دون أن تخرج بشىء.. وفكرت بسرعة.. ثم قالت وهى تميل ناحية محمد أفندى، وتهمس :

— ماتيجى تتغدى عندنا بكره ياسى محمد!

واتسعت عينا محمد أفندى دهشة، واستطردت بسرعة :

— وماله ياخويا.. ده بيتك!!

وغمزت بعينها ليفهم محمد أفندى ما تقصده..

وقال محمد أفندى :

— بس .. ده ..

وعاجلته توحيدة :

— ولا بسّ ولا حاجة.. خلاص أنا حستناك بكره.. وحا اعملك الملوخية بايدى.

وقامت بسرعة حتى لا تترك لمحمد أفندى فرصة للتردد.. وذهبت إلى الرجل الذى يرتدى ثياب القسيس.. وصاحت :

— بكره هو اللى عليه الرك يا ابونا.. خد بالك من الفار.. وغمى عنيه أكتر وأكتر..

وأعطته خمسة جنيهات أخرى..

وقضت ليلتها تحلم بالغد.. وتحلم بالزواج الجديد.. الزوج الذى تحبه..

ولم تذهب إلى المحكمة فى اليوم التالى.. قضت اليوم تعد الوليمة، واستدعت أم نبيهة البلانة لتعدها للحبيب المنتظر..

ومضت الساعات ..

والشك يراودها، فتقرأ الأدعية، وترى بعين خيالها الفأر يدور فى الساقية..

ثم ..

ثم جاء محمد أفندى..

مرتبكا .. مترددا .. متلعثما..

واستقبلته الست توحيدة، فى ثوب احمر يكشف عن ذراعيها البضتين، وصدرها المكتنز..

وجلسا إلى مائدة الغداء.. المائدة العامرة.. ومحمد أفندى لا يكاد يأكل شيئا.. ياحبة عينى.. انه الحب..

وتوحيدة تتحدث كثيرا، وتلح عليه أن يأكل، وتغمز بعينيها، كأنها تطمئنه على حبه..

وقاما بعد الغداء، وجلسا على الكنبة الاستامبولى فى الصالة، وقدمت ست توحيدة لمحمد أفندى، زجاجة كوكاكولا.. وجلست وذراعها العارى ملتصق بكتفه، وقالت فى دلال :

— قول بأه .. كنت قاصدنى فى ايه ؟

وابتلع محمد أفندى شفطة من زجاجة الكوكاكولا، ثم قال كأنه يسلم أمره لله :

— أصل الحقيقة ان مراتى عيّانه.. عيانه قوى..و..

وقاطعته ست توحيدة :

— وانت ذنبك ايه ياخويا.. ودى تبقى عيشة دى.. والنبى ده انت تستاهل احسن واحدة فى الدنيا.. واحدة تمتعك وتهنيك ..

وقال محمد أفندى كأنه لم يسمع كلامها :

— وانتى عارفه أن العيا بيكلف كتير.. وأنا خلاص تعبت.. وكنت عايز أطلب منك أن..

وسكت قليلا ..

وتعجلت الست توحيدة :

— اطلب ياخويا.. اطلب ياسى محمد.. اطلب وانت مطمن..

وقال محمد أفندى كأنه يزفر آخر أنفاسه :

— كنت عايز اطلب منك عشرة جنيه سلف، علشان اشترى الدوا لمراتى..

وامتقع وجه الست توحيدة، كأن دماءها فرت منها..

وقالت فى صوت مبحوح خطير :

— ده اللى كنت عايز تطلبه منى!

وقال محمد أفندى :

— أيوه ..

وعادت توحيدة تقول كأنها تتعلق بآخر خيوط الأمل :

— بس ده ..

وقال محمد أفندى فى استسلام :

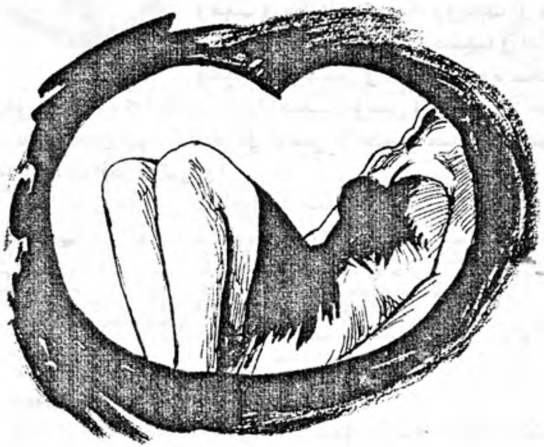
— أيوه ..

وابتعدت توحيدة عنه، وقالت فى حدة :

— وكنت فاكرنى بنك رهونات ولا ايه ياسى محمد.. مايتعرزش ياخويا.. مافيش يادلعدى.. عن اذنك، أصلى لازم أنام بعد الغدا ..

●●●

وفى اليوم التالى كتبت الست توحيدة بلاغين.. بلاغ للبوليس ضد رجل يرتدى ثياب قسيس ابتز أموالها باسم السحر.. وبلاغ لرئيس المحكمة الشرعية بأن محمد أفندى عبدالله كاتب المحكمة طلب منها رشوة عشرة جنيهات!!



حيـــاة الـنـــاس



لم تكن لى مشكلة قبل أن أصل إلى سن الثلاثين ..

كنت إنسانا عاديا، نلت دبلوم التجارة، وعينت فى وظيفة حكومية، ووصلت إلى مرتب معقول.. خمسة وعشرين جنيها فى الشهر ، وكنت أقيم وحدى فى شقة صغيرة بالدور الأعلى من عمارة كبيرة بميدان المحطة، وليس لى أطماع، ولا أضايق أحدا، ولايضايقنى أحد، أو على الأصح، لا أحس بأحد، ولا يحس بى أحد .. وكنت أفكر فى الزواج !

ثم حدث أن جاء زميلى فى العمل ، الاستاذ عبدالعظيم عبدالمقصود، وهو يحمل فى يده نظارة معظمة كبيرة.. نظارة كبيرة جدا.. ليست كالنظارات التى يحملها هواة سباق الخيل، ولكنها نظارة حربية مما يستعملها الضباط فى الميدان.. انها أقرب إلى سلاح حربى منها إلى مجرد نظارة.. وهى بعين واحدة، وتطول وتقصر، ولها أرقام خاصة تضبط بها عدساتها ، ولها حامل تثبتها عليه ..

وبهرتنى هذه النظارة ..

لا أدرى ماذا حدث، ولكنى أمسكت بها، وأحسست أنى أستطيع أن أكون أسعد انسان فى العالم لو استطعت أن أملكها ..

وبدأ الاستاذ عبدالعظيم عبدالمقصود يشرح لى كيف تعمل هذه النظارة، ثم ثبتها أمام الشباك، وضبط عدستها، ونظر فيها ثم صاح :

— تعالى شوف الست اللى بتطبخ دى !

ووضعت عينى على النظارة وقلت للأستاذ عبدالمقصود :

— دى فين الست دى ؟!

وأشار الاستاذ عبد المقصود إلى عمارة بعيدة فى شارع الساحة وقال :

— فى العمارة اللى هناك ..

وازدادت دهشتى ، اننا ننظر إليها من نافذة الوزارة فى ميدان لاظوغلى..

أى أن بيننا وبينها أكثر من أربع محطات ترام، ورغم ذلك فإنى أكاد ألمسها بيدى!.

وعدت أضع عينى على النظارة.. انى أرى المنديل الأخضر الذى تربط به رأسها، والجلباب الأصفر الملتصق بجسدها، وأرى الشبشب فى قدميها.. ان لون الشبشب أحمر.. بل إنى أستطيع أن أرى الطعام الذى تطبخه.. انها تطبخ بامية !.

يا هوه ..

ورفعت عينى عن النظارة وأنفاسى مبهورة ، وقلت لعبد المقصود بصوت متهدج :

— تبيعها !

والاستاذ عبدالمقصود رجل صعب، ظل يتدلل علىّ، وأنا أرجوه بل أتوسل إليه، إلى أن قبل أن يبيعنى النظارة بعشرة جنيهات، أدفعها له على قسطين، كل قسط خمسة جنيهات !.

وحملت النظارة كأنى أحمل كل حياتى، وذهبت بها إلى غرفتى فى أعلى العمارة الكبيرة بميدان محطة مصر، وثبتها على سور الشرفة، وقضيت بقية اليوم وأنا أحاول أن أضبط عدستها !.

ياه ..

انى أستطيع أن أرى بها حتى شارع ٢٦ يوليو.. انى وأنا أسكن فى محطة مصر، أستطيع أن أرى ما يدور داخل حجرات المحكمة العليا ، وما يدور فى ملهى سيروس الذى يقع فوق سينما ريفولى !.

و ..

وأخذت أوجه النظارة إلى داخل البيوت التى تحيط بى ، من خلال نوافذها !.

إنى أرى فى النظارة سيدة شابة وبجانبها رجل يتناول العشاء فى بيتها.. لعل الرجل زوجها.. وهى تميل عليه، وتضع له الطعام فى فمه، ثم تقبله.. وهو يستدير لها، ثم يحتضنها بذراعيه، ويبادلها القبل، ثم يعود إلى تناول العشاء..

و ..

ما هذا ؟!

فتاة تخلع ثيابها أمام المرآة، وتتبعتها إلى أن اختفت .. لعلها دخلت الحمام.. ثم عادت وارتدت ثوب النوم، واستلقت فى فراشها وأخذت تقرأ.. ان عنوان الكتاب «حبى الوحيد».. ثم أطفأت النور !.

و ..

رجل عجوز .. يبدو أنه يونانى .. يتناول عشاء مكونا من زيتون و«مرتدلا».. وبجانبه زوجته.. عجوز مثله.. انها لا تأكل، ولكنها تتكلم.. تتكلم كثيرا هذه المرأة !.

وظلت عينى فوق النظارة حتى الساعة الرابعة صباحا..

عندما أطفئت كل الأنوار ، ولم يعد هناك شىء أراه ..

ونمت ..

لعلنى لم أنم .. إنما أغمضت عينىّ لأستعيد مناظر الناس الذين رأيتهم.. الناس فى حياتهم الخاصة.. فى أدق تفاصيل حياتهم ..

ان الناس فى حياتهم الخاصة مخلوقات عجيبة، مثيرة، غير الناس الذين تلتقى بهم فى الشارع !

وفتحت عينى فى الساعة السابعة ملهوفا، وجريت إلى الشرفة، وإلى النظارة.. وعدت أرى الناس، يتثاءبون، ويغسلون وجوههم.. بعضهم مكشر، وبعضهم مبتسم ..

هل تعرف أن بين كل مائة شخص لاتجد واحدا ينزل من فراشه بنفس الطريقة التى ينزل بها الآخر.. وهل تعرف أن ليس هناك زوج يقبل زوجته عندما يفتح عينيه فى الصباح، بل أول ما يفعله هو أن يدير وجهه عنها ..

إنها حياة عجيبة.. مثيرة.. حياة الناس الخاصة !

وتنبهت إلى أن الساعة وصلت إلى الثامنة.. لقد تأخرت عن موعد العمل.. إنها أول مرة فى حياتى أتأخر ..

وارتديت ثيابى سريعا، وذهبت إلى الوزارة.. ولم أقبل على التحدث إلى زملائى كعادتى.. انما بقيت سارحا فى الحياة التى رأيتها خلال النظارة..

بل انى لم أستطع أن أحصر ذهنى فى دوسيه واحد من الدوسيهات المكومة أمامى.. لم أؤد عملا.. وبقيت أتعجل ساعة الانصراف.. ثم انطلقت كالمجنون.. عائدا إلى النظارة !!

ومرت الأيام ..

وحياتى كلها محصورة فى هذه العدسة الضيقة التى أطل منها على حياة الناس الخاصة.. وقد عرفت هؤلاء الناس كما لم يعرفهم أحد، وكما لايتمنون أن يعرفهم أحد.. عرفتهم إلى درجة أنى أصبحت أعيش معهم.. انى أعرف موعد عودة كل منهم.. وأعرف ماذا يأكل كل منهم.. وكم بدلة أو كم فستان فى دولابه أو دولابها.. وأعرف مزاج كل منهم.. وأعرف شذوذ كل منهم.. أعرف.. أعرف.. آه لو ذكرت كل ما أعرفه عن هؤلاء الناس وآه لو عرفوا .. كل ما أعرفه عنهم.. ربما فضلوا أن يقتلونى ..

وكنت ألتقى أحيانا ببعضهم فى الطريق، فأهم أن أصافحه.. أحس به كأنه قطعة من حياتى.. انى أراه كما لا يرى نفسه.. كما لم تره أبدا امرأته.. وأحيانا كنت أرى واحدا منهم يسير محترما مهابا فأضحك.. أضحك ملء قلبى.. لقد رأيته بالأمس عاريا تحت قدمى امرأة.. وأرى فتاة تسير فى دلال ورقة، فأضحك .. لقد رأيتها بالأمس حيوانة شرسة !

ومرت الأيام ..

ولم يعد لى شىء سوى النظارة.. لا أصدقاء ، ولا أقارب ، ولا إحساس، ولا مزاج .. لا شىء.. لا شىء.. كل شىء فى هذه النظارة..

ثم مرضت ..

ولم أستطع أن أقوم من فراشى لأطل من النظارة.. وتعذبت.. تعذبت حقيقة.. انتابتنى نوبة هستيرية كالتى تنتاب مدمن المورفين، عندما يعجز عن الوصول إلى المورفين ،

ولكن النوبة خفت فى اليوم التالى.. وحل محلها آلام المرض.. انى مريض جدا.. وأنا وحيد فى غرفتى.. واكتشفت شيئا كنت قد نسيته ..

اكتشفت أنى لم أتزوج ..

واكتشفت شيئا آخر ..

اكتشفت انى أصبحت فى الخامسة والخمسين من عمرى !

وشىء آخر اكتشفته !.

اكتشفت أنى أصبحت من الموظفين المنسيين، ولم أنل ترقية ولا علاوة منذ أكثر من عشرين سنة !.

نعم ..

لقد نسيت نفسى !.

نسيت حياتى الخاصة ، وأنا ملهوف على تتبع حياة الناس ..

والسبب ؟!

السبب هو هذه النظارة ..

وانتابتنى ثورة على النظارة.. يجب أن أتخلص منها .. يجب أن أحطمها.. يجب أن أسترد عمرى.. أن أعيش حياتى .. حياتى أنا .. لا حياة الناس ..

وتحاملت على نفسى ، وقمت من فراشى أحمل آلامى ،واندفعت إلى الشرفة وأمسكت بالنظارة بكلتا يدى لألقى بها إلى الشارع .. لأحطمها !.

ولكنى قبل أن أنزعها من مكانها وضعت عينى على العدسة الصغيرة ولم أرفعها !.

●●●



فضيحة



عزيزى احسان:
ماهو المجتمع؟
ماذا يريد المجتمع؟
ماهو القانون الذى يحكم به المجتمع على الأفراد؟!

لاتجبنى.. فأنا أعلم الجواب.. إن المجتمع هو خلاصة نفاق مجموعة من الناس.. وما يريده المجتمع لايتعدى المظاهر.. والقانون الذى يحكم به المجتمع على الأفراد، هو قانون المظاهر.. الحقيقة لا تهم المجتمع.. والخطيئة والفضيلة لا يهمانه.. فقط المظاهر.. فالسيدة الحشمة، التى ترتدى ثوبا مقفول الصدر، طويل الأكمام.. سيدة فاضلة فى نظر المجتمع.. حتى لو كان تحت ثوبها جسد مزقته الخطيئة، وروح شريرة يرتع فيها الحقد والكراهية، وإيذاء الناس..

واسمع قصتى لتقتنع برأيى..

لقد أحببت كمال وأنا فى السابعة عشرة من عمرى، حبًّا نظيفاً طاهراً كصفحة النور.. ولم نكن نستطيع أن نتزوج.. فأنا مسلمة، وهو مسيحى.. ولن أحدثك عن الظروف التى كانت تمنعه عن إشهار إسلامه والزواج بى.. يكفى أن تعلم أنه لو كان فعل ذلك، لقتل أباه المريض وأمه العجوز، وأضاع مستقبل أخواته البنات..

وعلم أهلى بحبى لكمال.. وتركونى له.. للحب.. فنحن عائلة متحررة لا تضيق الخناق على أفرادها.. ثم فجأة قرروا أن يزوجونى من رجل ذى نفوذ كبير.

قلت لأمى:

— ولكنى لا أحبه..

قالت:

— لا يهم ..

قلت :

— ولكنك تعلمين انى أحب كمال.

قالت:

— لا يهم..

وتعجبت.. كيف يعلمون انى أحب شخصا، ويزوجوننى لشخص آخر.. وحاولت أن أجادل أمى.. وحاولت أن أرفض.. ولكن عائلتى كلها تجمعت فى وجهى ليقنعونى بالزواج.. وعندما لم أقتنع، أجبرونى على الزواج..

أتدرى لماذا؟

لأن زواجى بهذا الرجل كان مظهرا من المظاهر التى تستطيع عائلتى أن تتباهى بها أمام الناس.. فهو، كما قلت لك رجل ذو نفوذ، غنى، من عائلة كبيرة.. لم يكن يهم عائلتى أن أكون سعيدة.. ولم يكن يهمها الحب.. فالمجتمع لا يهتم بالحب، ولا يهتم بالسعادة.. فقط المظاهر!

أتدرى أيضا؟

لقد اكتشفت من خلال مناقشاتى فى تلك الأيام، ان أمى لم تسكت على حبى لكمال، إلا لأنها كانت تعلم انى لن أتزوجه.. كانت تعلم ان من المستحيل أن اتزوجه.. ولو كان هناك احتمال لأن أتزوجه، لحاولت أن تحطم حبى، ولأبعدتنى عنه.. فكمال فى رأيها قد يصلح للحب، ولكنه لايصلح لزواج تتباهى به أمام المجتمع.. والحب فى نظرها ، هو من شئونى الخاصة .. أما الزواج فهو شأن المجتمع .. والمجتمع لا يهمه السعادة الزوجية، ولكن يهمه المظهر.. مظهر الزواج..

ولا أطيل عليك.. لقد تزوجت.

وحاولت فى الشهور الاولى من زواجى ان انسى كمال.. حاولت كثيرا.. ولكنى لم استطع.. وكان ضيقى من زوجى، وشقائى معه، يدفعانى إلى حبيبى أكثر.. فعدت إليه.. وحاولت أن أحصن نفسى من الخطيئة، فتعمدت أن أعود إلى كمال وسط مجتمع من الناس.. وتحايلت حتى عرفته بزوجى فى النادى.. وأصبح صديقا له.. ثم لم نعد نفترق نحن الثلاثة.. زوجى، وحبيبى، وأنا.. وبدأت الهمسات تحيط بنا.. وكنت اسمع هذه الهمسات..

أسمعها فى عيون الناس.. ولكن الناس لم تعترض.. والمجتمع لم يثر.. رغم كثرة الهمسات والاشاعات.. بل كان الجميع يرحبون بنا نحن الثلاثة.. وندعى إلى الحفلات نحن الثلاثة..

وكنت أعتقد انى أستطيع فى حماية المجتمع أن أصون نفسى لزوجى.. ولكن المجتمع لم يحمنى.. لم يهددنى بعقاب.. لم يسخط علىّ.. لم يحذرنى من الطريق الذى أسير فيه.. بل كان يرحب بى.. ويعترف بوضعنا نحن الثلاثة.. الزوجة، والزوج، والعشيق..

و..

وكانت أنوثتى قد نضجت، وزوجى يحرمنى من حاجتى كأنثى.

و.. وخنت زوجى..

سلمت نفسى لحبيبى، بعد مقاومة سنوات طوال..

واشتدت الهمسات حولنا.. والاشاعات.. ورغم ذلك فا لمجتمع لا يزال يرحب بنا.. ولا ندعى أنا وزوجى إلى حفلة إلا ويدعى معنا كمال.. والذين يتوددون إلىّ وإلى زوجى يتوددون أيضا إلى كمال.. وصديقاتى يقابلننى ويسألننى فى مرح ولهفة:

— ازاى البيه..

ثم يستطردن:

— وازاى الأستاذ كمال..

وهكذا.. هكذا أصبحنا صورة يعترف بها المجتمع، ويرحب بها فى منتدياته، رغم ما فيها من خداع، ودنس، وخطيئة.. صورة الزوجة والزوج والعشيق.. ولم تكن هذه صورتنا نحن الثلاثة وحدنا.. انها صورة تنتشر منها عشرات النسخ فى المجتمع.. تختلف الوجوه فى كل صورة، ولايختلف الوضع الاجتماعى..

وكنا سعداء..

والمجتمع سعيد..

الناس كلهم يعرفون ولايعترفون.. وزوجى لايعلم.. وأنا وكمال لا نفترق..

وكان يمكن أن نستمر هكذا إلى الأبد، لولا انى لم احتمل.. لم احتمل هذه السعادة المزيفة.. لم أكن فى قرارة نفسى سعيدة.. كنت أشعر بالخديعة التى أرتكبها فى حق زوجى، وفى حق حبيبى.. بالدنس الذى يسرى فى دمى..

كنت أشعر بأنى اخون زوجى مع حبيبى، وانى أخون حبيبى مع زوجى.. وكنت اتعذب فى احضان كليهما.. فى أحضان زوجى أحس انى لست ملكا له.. وفى أحضان حبيبى أحس انى لست ملكا له أيضا.. أحس كان جسدى منفصل عن روحى.. روحى التى تتطلع إلى الصفاء، إلى الصراحة، إلى عالم بلا خيانة ولا خطيئة.. وجسدى الذى أذله فى النور مع رجل لا أحبه.. انه عذاب.. عذاب.. عذاب لا يمكن ان تتصوره.. عذاب الحلال.. وعذاب الحرام.. عذاب شفتى بين شفتى رجل لا أطيقه وتخنقنى انفاسه.. وعذاب شفتى بين شفتى رجل أحبه وتبهرنى انفاسه..

وأخيرا..

وأخيرا قررت ان أطلق زوجى..

لم أعد استطيع ان أستمر فى خداعه.. ولم أعد استطيع ان أحتمل ثوب الزوجة الخائنة.. الخائنة لزوجها، والخائنة لحبيبها..

وطلقته..

وعشت لحبيبى.. إلى أن يستطيع أن يشهر إسلامه، ويتزوجنى.. والتفت إلى المجتمع لأتلقى تهنئته.. تهنئته للزوجة التى ضحت بزوجها حتى لا تعيش زوجة خائنة..

ولكن ، لا..

أسموها : فضيحة!!

وأدار عنى المجتمع ظهره.. انفض عنى الناس.. ولم نعد ندعى أنا وكمال إلى الحفلات..

وصديقاتى اللاتى كن يسألننى عن «الأستاذ كمال»، لم يعدن يسألننى عنه.. كأن كمال لايمكن أن تكون له صفة إلا إذا كان عشيقا لامرأة متزوجة.. والرجال الذين كانوا يتوددون إلى كمال، كفوا عن التودد إليه كأنه فقد منصبه.. منصب عشيق زوجة الرجل الغنى صاحب النفوذ..

وانحاز المجتمع كلـه إلى جانب زوجى.. واعتبروه مجنيا عليـه.. مجنى عليه لأن زوجته رفضت أن تستمـر فى خيانتـه.. رفضت أن تستمر فى خـداعه.. وفضلت أن تتركه وتجاهر بحبها..

وبعد..

ماهى الفضيحة؟

أنها ليست خطيئة.. إنما الخروج على مظهر من مظـاهر المجتمع.. حتى ولو لم يكن فى هذا الخروج خطيئة.

ولقد قبلنى المجتمع، ورحب بى، كزوجة خائنة.

ورفضنى، واحتقـرنى، كـامـرأة تحب.. تحب دون ان تعتـدى على حق زوج، ودون ان تخون أحدا..

هل هذا مجتمع؟

لقد قلت لك انـه مجتمع لاتهمه إلا المظاهـر.. يرضى بى زوجـة حتى لو كنت زوجة خائنة، ويرفضنى كامرأة تحب حتى لو كنت مخلصة فى حبى..

والنتيجة..

لم يعد يهمنى شىء.. ليسقط هذا المجتمع..

ويكفينى حبيبى..

وليغفر الله لى..



بعيداً عن الأرض



كان ذلك عام ١٩٤٨..
وكنت فى طريقى الى الولايات المتحدة على ظهر الباخرة «كوين مارى». مسافرا على حسابى الخاص للقيام ببعض التحقيقات الصحفية، والاطلاع على نظم دور الصحف الأمريكية..

وقبل أن أترك القاهرة بأيام اتصلت بى احدى الهيئات السياسية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت، وكلفتنى بأن أقوم بالدعاية لقضية فلسطين فى الأوساط السياسية الأمريكية، وأشرح القضية أمام الرأى العام الأمريكى.

ولم أفهم بالضبط ماذا يراد منى، ولا ماذا استطيع أن أفعله للدعاية لفلسطين وشرح قضيتها..

والذين كلفونى، لم يفهموا أيضا ماذا يريدون منى.. لم تكن لديهم أبحاث خاصة، ولم تكن لديهم فكرة عن الشخصيات والهيئات التى يجب أن أتصل بها.. كل ما قالوه لى ابذل جهدك..

ووعدت بأن أبذل جهدى..

وكنت صادقا فى وعدى..

بل انى كنت مقررا أن أبذل جهدى حتى لو لم تكلفنى هذه الهيئة السياسية بشىء، فانى كمواطن عربى كنت سأتحدث عن حقنا فى فلسطين، أمام كل من ألقاه فى الولايات المتحدة، وأمام كل جمع أقف أمامه..

وسافرت..

واخترت أن أعبر المحيط على ظهر مركب لأستريح أياما، بعد ثلاثة أعوام قضيتها فى عمل متواصل، بلا أجازة..

والمحيط هادىء..

والشمس مشرقة..

والهواء رقيق كالقبلات..

وأنا على سطح المركب ممدد على مقعد طويل مريح، وفى يدى كتاب

لا أقرأ فيه، وعيناى منطلقتان إلى الأفق البعيد.. انه احساس لذيذ أن تمد عينيك دون أن تصطدما بشىء.. بعمارة.. أو منحنى.. أو فانوس نور.. تحس وأنت مفتح العينين بنفس الراحة التى تحسها وأنت مغمضهما..

ولم أكن أرى مياه المحيط.. ولا انسدال السماء على الأرض عند نهاية العالم.. عند الأفق.. ولكنى كنت أرى نفسى.. أرى سنوات عمرى كلها منذ كنت طفلا حتى أصبحت فى الثامنة والعشرين.. وكنت أبتسم لنفسى.. لعمرى..

ولكنى مع مرور الساعات بدأت أملُّ رؤية نفسى، وبدأت عيناى تلتقطان منظر أمواج المحيط وهى تتطاير حول الباخرة كالحمامات البيضاء، ثم بدأت أتلفت نحو الركاب وهم يتمشون فوق ظهر المركب..

وأمامى فتاة مستندة على سور المركب، متجهة بوجهها الى البحر، وفى يدها كتاب.. انى لا أستطيع أن أرى وجهها.. ولكن قوامها متسق دقيق، وساقيها أنيقتان، شفافتان، بياضهما مخضب بحمرة خفيفة.. وشعرها طويل.. أحمر. كعلم الخطر..

أريد أن أرى وجهها..

لا شك أن وجهها جميل.. أجمل من قوامها، وأجمل من ساقيها، وأجمل من شعرها الأحمر..

وابتسمت لنفسى.. من أدرانى أن وجهها جميل.. لعله على الأرجح وجه قبيح.. وجه عجوز ملىء بالنمش.. مهدل الجلد.. ان القوام الجميل غالبا ما يكون قواما خداعا!!

وبدأت أراهن نفسى..

جنيه، لجيبى الشمال اذا كان وجهها جميلا..

وجنيه، لجيبى اليمين اذا كان وجهها قبيحا..

وانتظرت فترة طويلة وأنا أراقبها لعلها تدير وجهها إلىّ.. ولكنها ظلت مطلة على البحر، والكتاب بين يديها..

وفجأة.. طارت ورقة من بين صفحات الكتاب، وسقطت تحت المقعد الطويل الذى أجلس عليه..

والتفتت خلف الورقة..
ورأيت وجهها..
انه وجه جميل.. أجمل مما كنت انتظره..
وبسرعة انتفضت واقفا وانحنيت لألتقط الورقة، وخطوت نحوها ويدى ممدودة اليها..
وقالت بالانجليزية وهى تأخذ منى الورقة:
— شكرا ..
قالتها دون أن تبتسم..
وقلت وأنا ابتسم:
— ان جيبى الشمال يشكرك..
قالت فى دهشة وهى تنظر الىّ كأنى مخبول:
— ماذا تقول؟!
قلت وأنا لا أزال محتفظا بابتسامتى:
— الواقع أنى كنت أرقبك وأنت تطلين على البحر.. وراهنت نفسى.. اذا كان وجهك جميلا، كسب جيبى الشمال.. واذا لم يكن جميلا كسب جيبى اليمين.. و..
وقاطعتنى قبل أن أتم كلامى قائلة فى حزم.. دون أن تضحك، بل دون أن تبتسم:
— فهمت..
وأدارت وجهها عنى، وعادت تستند على سور المركب..
وترددت برهة.. ثم لاحقتها، وقلت لها، وقد سحبت ابتساماتى وحاولت أن أبدو وقورا:
— هل أستطيع أن أتحدث اليك؟
ونظرت الىّ كأنها تصفعنى، وقالت :
— لماذا ؟
قلت:
— لا لشىء .. ولكننا نعيش فى مركب واحد .. أى فى بيت واحد..

ولا ضرر من أن نتحادث لنقطع الوقت ..
وطافت فوق شفتيها ابتسامة عابرة.. وقالت:
— راهن نفسك اذا كنت سأقبل التحدث اليك!
ثم انفلتت من أمامى.. وأخذت اتبعها بعينى، حتى غابت فى منحنى الباخرة..
وشعرت بالخجل..
الخجل من نفسى..
لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى اركب فيها الباخرة، وكنت أعتقد أن ركاب البواخر من حقهم أن يحادثوا بعضهم بعضا دون سابق معرفة.. ولا أدرى من أين أتيت بهذا الاعتقاد.. ربما من كثرة ما قرأت من قصص المغامرات التى تدور حول رحلات البواخر!!
وقضيت اليوم وأنا أحاول أن انفض عن قلبى الاحساس با لخجل من نفسى.. الاحساس بأنى انسان ثقيل، يفرض نفسه على فتاة غريبة عنه.
ورأيتها فى صالة الطعام ساعة الغداء..
كانت تجلس وحدها على مائدة صغيرة..
وأنا وحدى على مائدة صغيرة فى الناحية الأخرى..
ولم أحاول أن أطيل النظر اليها.. اكتفيت باللمحة الأولى.. ثم أسقطت عينى فى طبق الطعام..
وقابلتها بعد الغداء هى تتمشى على سطح الباخرة.. وتعمدت أيضا ألا التفت اليها..
ثم رأيتها ساعة العشاء.. هى على مائدتها.. وأنا على مائدتى.. وحيدة.. ووحيد.. وعيناى فى طبق طعامى، وخيالى مشغول بها. وأحسست أنها تنظر الىّ..
لا أدرى سر هذا الاحساس.. ولكنى كنت متأكدا أنى لو رفعت رأسى فسألتقى بعينيها تنظران الى.. ولم أرفع رأسى!
وبعد العشاء قمت أتمشى على سطح الباخرة.. وضوء السطح خافت..
ومن خلف عامود من أعمدة الباخرة سمعت صوتا ناعما ينادينى:

— هاللو..
والتفت، وقبل أن أرد نداءها، سمعتها تقول لى وصوتها ضاحك:
— من كسب .. جيبك الشمال أم جيبك اليمين؟
وخطوت اليها..
ووقفت أمامها، وعيناى تشربان من وجهها كأنى فى شوق اليها.. كأننا التقينا بعد فراق طويل دام العمر كله.. وقلت دون أن ابتسم:
— لم أراهن.. لقد جرحتنى ذاك الصباح!
قالت:
— غلطتك أنك شعرت با لملل قبلى.. لو كنت أجلت لقاءنا بضع ساعات، لرحبت بالتحدث اليك.
قلت:
— لقد اخترت السفر بالباخرة لأنى اعتقدت انى فى حاجة الى الوحدة وإلى الراحة.. ولكن يبدو أن الراحة لا تكون أبدا مع الوحدة.. فقد شعرت با لملل وبحاجتى الى من أتحدث اليه بعد ساعات من تحرك الباخرة..
قالت وصوتها مرح:
— وأنا أيضا .. ولكن عمر وحدتى كان أطول من عمر وحدتك بساعتين فقط.. فقد قررت أن أتحدث اليك منذ رأيتك تدخل صالة الطعام ساعة الغداء..
قلت :
— يا خسارة.. ليتنى راهنت.. لقد ضيعت الربح على جيبى الشمال!
وضحكت.. ثم قالت:
— ألا تعرفنى بنفسك ؟ ..
قلت :
— لا .. ليس الآن.. لنحتفل بلقائنا أولا، ثم نحتفل بتعارفنا. ماذا تشربين؟
ونظرت الىّ كأنها تختبرنى قبل أن تطمئن الىّ، وقالت:
— مارتينى..

قلت بسرعة:
— انتطرينى قليلا.. لا تتحركى.
وجريت.. جريت فعلا.. جريت وراء فرحتى بها..
ودخلت الى «البار» وحملت كأسين من المارتينى وعدت اليها.. وعيناى تضمان وجهها، وعيناها تطلان على وجهى.. وكل منا يرشف كأسه بابتسامته.. وأمواج المحيط ترقص لنا..
ان عينيها واسعتان، فى لون قشر البندق، وشفتيها مكتنزتان كحبتى كريز، وصباها يمرح فوق بشرتها. انها لا يمكن أن تزيد عن الثانية والعشرين من عمرها.. وعلى وجهها مسحة من الشرق.. لا أدرى من أين أتت بها، رغم أنها تتكلم الانجليزية بلهجة أمريكية صميمة.. وقلت لها وكأسها يذوب بين شفتيها:
— دعينى أخمّن من أنت..
قالت:
— خمن ..
— انت أمريكية..
قالت:
— تقريبا..
ولم ألحظ انها قالت « تقريبا »، ولم أحاول أن أفهم ماذا تعنى.. وعدت أقول وفرحتى بها تضج فى قلبى:
— وأنت عنيدة..
وضحكت قائلة:
— لأن شعرى أحمر.. أليس كذلك.. لا تصدق أن الشعر الأحمر يرمز الى العناد.. انى أحيانا كثيرة أستسلم بسهولة..
قلت:
— ان الاستسلام أحيانا راحة.
قالت وهى تتنهد:
— ليس دائما..

ومرت على وجهها سحابة قاتمة، نفضتها سريعا، وعادت تبتسم قائلة:

— دعنى أخمن أنا..

ونظرت الى وجهى من جميع نواحيه، كأنها تنظر فى لوحة معلقة، ثم قالت:

— أنت ايطالى ؟

قلت ضاحكا:

— لا..

— أسبانى إذن ؟

وضحكت أكثر وقلت:

لا..

واحتارت عيناها وهما تنظران فى وجهى وقالت:

— لا يمكن أن تكون يونانى..

قلت وأنا لا أزال أضحك :

—لا .. لا .. خمنى أكثر..

وقالت:

— يئست. قل لى من أين أتيت ؟..

قلت كأنى أفاجئها:

— من مصر..

وسكتت..

سكتت مرة واحدة كأن شيئا قد حدث.. وأدارت وجهها عنى، وأخذت تطل فى مياه المحيط، وبقايا الكأس بين يديها..

وأخذت أروى لها حادثة وقعت لى فى فرنسا منذ عامين عندما كان مهرجان السينما منعقدا هناك وظننى الناس أحد نجوم اسبانيا..

وكنت أتكلم بسرعة وحماس، لعلى أستطيع أن أعيد وجهها الىّ، ولكنها كانت لاهية عنى وعن حديثى، تبحلق فى الأمواج البيضاء التى تتطاير من تحت المركب..

ثم فجأة التفتت الىّ وقالت فى لهجة أقرب الى الأمر:

— ما اسمك؟

قلت وقد بدأت أحتار فيها:

— حسن..

واكتسى وجهها بمزيد من اليأس وعادت تطل على أمواج المحيط، ثم قالت فى صوت خفيض كأنها تغتصبه من حلقها بصعوبة:

— حدثنى عن بلدك.. عن مصر..

وما كدت أبدأ حديثى حتى اعتدلت فى وقفتها ورفعت بقايا كأسها الى شفتيها، ثم قالت:

— لا .. لا تحدثنى عن بلدك.. أعطنى كأسا آخر..

قلت وأنا أنظر اليها فى دهشة:

— هل نذهب الى البار؟!

قالت فى اختصار:

— أحسن..

وسارت بجانبى صامتة، ووجهها غارق فى سحابة داكنة.. وأنا ألتفت اليها بين الحين والحين، ويخيل الىّ أنها تتعذب.. شىء فى صدرها يعذبها.. أحس برغبة عارمة فى أن أضمها الى صدرى، وأضع رأسها على كتفى.. لعلها تبكى.. وتستريح..

كنت قد بدأت أشعر نحوها بعاطفة غريبة. عاطفة فيها حنان وفيها لهفة، وفيها خوف، وفيها متعة البحث عن المجهول..

ووصلنا الى البار..

وشربت كأسا.. وكأسين.. وانقشعت السحابة الداكنة وانطلقت تضحك وتتحدث.. وأنا أضحك وأتحدث.. ثم..

ثم لمست يدى يدها من تحت مائدة البار..

وكادت يدانا تتلامسان حتى تعانقتا.. وقلب كل منا فى يده.. يخيل الىّ أن يد كل رجل تبقى معلقة فى ذراعه فى انتظار يد أخرى معلقة فى ذراع امرأة.. يد خلقت ليده.. على مقاسها.. وشعرت أن هذه اليد التى اعانقها بيدى، هى اليد التى خلقت لى.. على مقاسى.. وشعرت أن بين يدينا حديثا طويلا.. انهما يتفاهمان بلغة خاصة.. ان للأيدى لغة لا تفهمها الا كل يدين

خلقت احـــداهما للأخـرى ..

وسكتت..

ويدانا تتحادثان..

ثم قلت وقلبى واقف فى حلقى:

— هل نرقص؟

وابتسمت صـامتـة وفى عينيهـا خفر.. وقـامت معى الى حلبـة الـرقص ويدها لا تزال فى يدى..

وضممتها الى صدرى ..

الـدنيـا كلهـا بين ذراعى.. أجمل مـا فى الـدنيـا.. وقلبى يخفق، وقلبهـا يخفق.. ليس بيننا الا خفقات قلبينا..

ورقصنا كثيرا ..

وخدها على خدى ..

وصدرها على صدرى ..

ولا نتكلم ..

وسكتت الموسيقى.. فأفقنـا.. لا .. لم نفق.. فقط انتهينـا.. وخرجنـا الى سطح المركب، ويـدهـا فى يدى ووقفنـا مستندين على سـور، نطل على الموج الأبيض الذى يتطاير من تحت المركب كالحمامات البيضـاء .. ولا نتكلم..

ثم ..

قالت دون أن تنظر الىّ كأنها تحادث نفسها:

— لماذا انت من مصر ؟

قلت وأنا أقبلها بابتسامتى:

— لأنى ابن الله المدلل.. لقـد وهبنى أجمل وطن.. ووهبنى الليلـة أجمل صدفة..

ولم تجب..

ظلت صامتة تنظر الى الموج.. ثم رفعت رأسها وقالت فى صوت هادئ:

— تصبح على خير..

وفـوجئت.. وفتحت فمى لأحتج .. ولكنهـا نظرت إلىّ كأنها تـرجـونى ..

نظرة مسكينة فيها تنهيدة ضعيفة.

وتمتمت:

— تصبحى على خير..

وتركتها تذهب..

●●●

ونمت وهى تحت أجفانى..

لم أكن أفكر فيها كمجرد مغامرة على ظهر مركب.. لا .. كان قلبى يرتفع بى الى أكثر من ذلك بكثير.. الى آفاق تسع عمرى كله..

وانتظـرتها فى الصباح على ظهـر المركب حتى السـاعة الحاديـة عشرة.. ولكنها لم تظهر.. وبدأت أطوف بـا لمركب باحثا عنها.. وفكرت أن أتصل بها فى التليفون.. ولكنى اكتشفت أنى لا أعرف اسمها..

الى الآن لا أعرف اسمها..

وابتسمت لنفسى.. لقد شغلتنى فرحتى بها عن أن أسألها اسمها..

وعـدت الى سطح المركب.. وقد بـدأت أعصابى تخوننى.. لم أعـد أطيق مزيدا من الانتظار..

و..

وظهـرت .. آتية من بعيـد فى ثـوب أبيض وشعـرها الأحمر ملقى فـوق كتفيهـا.. ووجهها ممتقع قليـلا كأنها لم تنم.. وأسرعت اليهـا، وقلت كأنى صاحب الحق عليها:

— لقد تأخرت.

ونظرت الىّ فى دهشة ثم ابتسمت وقالت:

— كنت أكتب بعض الخطابات..

وسرنا بجانب بعض ثم التفت اليها كأنى تذكرت.. وقلت:

— هل تدرين.. أنى لا أعرف اسمك، حتى الآن..

قالت:

— خمن.

قلت:

— لا.. انى استطيع أن أطلق عليك اسماً أحبه.. وأكتفى به..

قالت:

— اذن.. انتقِ لى اسما..

قلت بسرعة:

— فاطمة..

وضحكت.. ضحكت من كل قلبها.. وأمسكت يدها، وقلت وأنا لا أضحك، وخفقات قلبى فى عينى:

— انه اسم امى..

وسكتت عن الضحك.. وأرخت عينيها.. ومرت السحابة الداكنة على وجهها..

وقلت:

— انه أعز الأسماء لدىّ..

قالت:

— قد لا إستحقه.. انك لا تعرفنى.

قلت:

— انى أعرف ما أحس به نحوك..

قالت:

— لنكتفِ بأحاسيسنا.. ما رأيك؟

قلت:

—الدنيا ليست سوى أحاسيس..

قالت:

— ولكن أحاسيسنا تتعارض أحيانا بعضها مع بعض.. والا لما شقينا..

قلت:

— لن نشقى أبدا.

قالت مبتسمة:

— انك تتحدث كأنك طفل سعيد.

قلت:

— كل السعداء أطفال..

قالت:

— هذا صحيح.. أريد أن أعود طفلة!!

وسبقتنى الى لعبة من الألعاب المنشورة على سطح المركب وهى تصيح:

— تعال العب معى..

ولعبنا.. وضحكنا.. وفى ساعة الغداء، طلبت من رئيس الخدم أن ينقل مكانى الى مائدتها. وجلست أحدثها عن نفسى.. عن عملى.. وهى تسمع صابرة، وعيناها تبحثان فى وجهى، كأنها تحاول أن تكتشف سرى.. أو سرها.

وقالت:

— انت تشتغل بالسياسة.

قلت:

— لا .. ولكن كلنا فى مصر نشتغل بالوطنية..

قالت وهى تعبث بالشوكة الموضوعة بجانب طبقها:

— هل تعتقد أن مصر ستحارب فلسطين، كما يقولون؟.

قلت فى حماس:

— ياريت.. اننا بذلك ننهى المشكلة..

قالت:

— قد تعقدونها..

قلت:

— لا .. الحل الوحيد هو أن تدخل جيوشنا...

وقاطعتنى قائلة:

— حدثنى عن بيتك فى مصر.. انى أكره حديث السياسة.. وأخذت أحدثها عن بيتى.. عن أختى وأمى وأبى.

وقضينا طول الوقت معا.. والحديث لا ينتهى.. وكنت أتحدث أكثر منها.. انها لم تقل لى الا أن أهلها يقيمون فى نيويورك.. وأن أباها رئيس لمجلس ادارة بنك كبير.

ويدها دائما فى يدى..

ولم تفترق يدانا إلا فى المساء عندما ذهب كل منا الى حجرته ليغير ملابسه استعدادا للعشاء..

و..

وبعد العشاء وقفنا مستندين على حاجز الباخرة. كانت ترتدى ثوبا فى لون البنفسج، ينسدل عليه شعرها الأحمر، فيبدو وجهها كأنه يطل من وراء الأفق ساعة المغيب.. والهواء يطير ثوبها.. ويطير شعرها.. ويطير ابتسامتها.. ويطير نظرات عينيها.. انها تبدو شاردة.. هائمة.. كأنها تقاوم شيئا يئز فى صدرها..

ولم أكن أدرى ما تقاومه..

ولكنى كنت أدرى أننا يجب أن نخطو احدنا نحو الآخر خطوة أخرى.. الحديث لم يعد يكفى بيننا..

واقتربت منها..

والتقطت يدها فى يدى..

وأطلت النظر اليها.. ورفعت عينيها الىّ برهة، ثم عادت وخفضتهما..

واقتربت منها أكثر..

وملت بشفتىّ على خدها..

وأشاحت بوجهها عنى فى رفق، وقالت هامسة:

— لا .. أرجوك..

ثم عادت الىّ بوجهها بسرعة.. ورفعت عينيها الىّ.. عيناها فيهما استسلام..و..

وأعطتنى شفتيها..

لا أدرى كم طالت قبلتنا.. لا أريد أن تنتهى.. لا أريد أن أترك شفتيها من بين شفتى..

ولكنها فجأة نزعت شفتيها.. وأشاحت عنى، وأخذت تضرب حاجز الباخرة بقبضتيها، كأنها تريد أن تحطم شيئا.. ثم استدارت وأنا واقف مبهور، أخاف على طعم قبلتها أن يضيع فى دهشتى من تصرفاتها.. وقالت فى صراخ هامس:

— اسمع.. يجب ألا نلتقى بعد الآن.. انك لا تعرف من أنا.. انك طفل.. طفل.. وأخاف أن تفيق من طفولتك إن عرفت.

قلت فى صوت رزين كأنى أفقت فعلا من طفولتى:

— من أنت؟

قالت وهى تنظر الىّ فى تحدٍّ كأنها قررت أن تحطمنى:

— أنا يهودية..

قالتها فى نبرة خطيرة..

ووقفت أمامها كالغبى..

ماذا لو كانت يهودية.. ان بين زملائى فى عملى ثلاثة من اليهود، أحدهم رسام، والثانى يعمل فى قسم الاعلان، والثالث فى قسم الحسابات.. ولى فى القاهرة أكثر من صديق يهودى.. بل إنى عندما كنت أسكن فى العباسية منذ عشر سنوات أحببت فتاة يهودية تسكن فى حى الظاهر..

وقلت كأنى أريحها:

— وأنا مسلم.. ماذا يعنى هذا؟

وصرخت صرختها الهامسة:

— انك لا تفهم. انك لا تريد أن تفيق من طفولتك.. انى يهودية، وأقيم فى فلسطين.. وأكثر من ذلك.. أنا مجندة فى جيش الهاجانا.. هل تعلم ماذا يعنى كل ذلك.. يعنى أننا أعداء.. يعنى أن واجبى الآن يتطلب منى أن أتجسس عليك.. أن أبتز منك كل ما لديك من معلومات.. وقد اعطيتنى منها حتى الآن الكثير.. لقد فعلت ذلك مع كثيرين من العرب الذين التقيت بهم فى القدس وفى يافا وفى بيروت.. ولكنى الآن فى أجازة.. لا أريد أن أعمل.. أريد أن أنسى الهاجانا، وأنسى فلسطين.. أريد أن أستريح.. هل تفهم.. أريد أن أستريح.. ولن أستريح معك.. انى معك أحارب..

وتجمدت..

ووقفت مشدوها، كأن حجراً سقط فوق رأسى..

ورأيتها تنظر الىّ فى غيظ.. وصدرها يتهدج فى عنف..

ثم استدارت.. وأخذت تجرى.. وثوبها الأزرق يجرى خلفها.. وشعرها

الأحمر يجرى خلفها .. والليل يجرى خلفها ..

وسقطت على أقرب مقعد الىّ..

وقلبى يتقلص.. يد امتدت بين رئتى وخنقت كل ما فى صدرى من أحلام.. كل ما تصورته فى الدنيا من جمال.

أحسست كأن سورا عاليا ضخما قد ارتفع بينى وبينها، ولن أصل اليها أبدا إلا اذا حطمت هذا السور.. وهناك.. خلف السور.. سأجدها.. وسأجد الحب.. سأجد أجمل ما فى الانسان..

وكنت حتى ذلك الحين أتصور الصهيونية على أنها مجرد جماعة من الناس يحاولون استغلال الدين اليهودى للاستيلاء على قطعة أرض.. مجرد شروع فى سرقة.. ولكن الصهيونية أخطر من ذلك بكثير.. انها دعوة لتحطيم الانسان.. لتحطيم الحب.. لتحطيم الجمال.. لتحطيم السلام.. انها تقطر السم فى قلوب الناس حتى تستحيل القلوب الى قطع جافة من الحقد والكراهية.

وشعرت بالسم يملأ قلبى.

الحقد..

الحقد على الذين يسرقون منى الحب والجمال..

وتمنيت فى هذه اللحظة أن أقتل.. أقتل كل الصهيونيين.. وبدأت أفكر لأول مرة فى أن أحارب.. لا بقلمى.. ولكن بسلاحى.. ان أذهب اليهم وأقتلهم واحدا واحدا.

والليل يزداد سوادا من حولى.

الليل فى قلبى، وفى عقلى..

ولا أدرى كم بقيت على مقعدى أنا والليل..

ثم قمت أجر ساقى الى غرفتى.. وخلعت سترتى.. ثم لم استطع أن أخلع بقية ثيابى.. جلست على حافة السرير الضيق أحاول أن أنفض الحقد عن قلبى.. لعلّى بعد ذلك أنام..

وسمعت طرقا على بابى..

وكذبت أذنى..

ولكن الطرق يتكرر.. أعنف.

ونظرت الى الساعة .. انها الثانية صباحا..

وقمت وفتحت الباب..

ووجدتها..

ورموش عينيها تضطربان فوق عينيها الواسعتين.. وشعرها الأحمر مهدل فوق جبينها..

ونظرت الىّ وأنفاسها تلهث.. نظرت الىّ طويلا.. ثم قالت بصوت مبحوح:

— أنا سكرانة .. أقنعنى بأنى سكرانة.. ثم خذنى!

وأخذتها بين ذراعىّ..

وقلبى وقلبها يبحثان عن السلام..

والدموع فى عينيها..

●●●

وضوء الفجر يتسلل من الكوة الصغيرة الى غرفتى.. وثوبها الأزرق هادىء فوق جسدها.. وشعرها الأحمر هادىء فوق وسادتى.. وعيناها نصف مغمضتين.. وشفتاها نصف مفتوحتين.. وأنفاسها ترف حول وجهى.. وذراعها ملقى باهمال فوق صدرى.

وقالت كأنها تحلم:

— قل لى .. هل ستحارب اذا قامت معركة فى فلسطين ؟

قلت هادئا:

— طبعا..

قالت:

— قد نلتقى فى الميدان..

قلت:

— ربما..

قالت :

— سأقتلك..

قلت :

— سأعفيك من قتلى.. سأقتلك أولا..

ودفنت وجهها فى عنقى، وهمست:

— يا حبيبى!!

●●●

كان قد بقى يومان وتصل الباخرة الى نيويورك..

وقضينا اليومين معا..

لم نفترق..

وحاولنا أن نبنى لأنفسنا فى هذين اليومين عالما من السلام، والحب، والجمال.

عالما ننسى فيه..

أنسى انها صهيونية مجندة فى جيش الهاجانا..

وتنسى أننى عربى سأحارب يوما على أرض فلسطين..

أنسى أنها قد تقتلنى يوما..

أنسى أنى قد اقتلها يوما..

وكنا نستعين بكل ما حولنا، وبكل طاقات نفسينا، لننسى..

كنا لا نكف عن اللعب .. والموسيقى.. والرقص.. وكؤوس المارتينى.. ويدى فى يدها دائما.. وعيناى فى عينيها.. وابتسامتى تحتضن ابتسامتها..

ورغم كل ذلك لم نستطع أن ننسى..

كان ظل الجدار العالى يقف بيننا، ويلقى سواده على قلبينا..

كنت لا أكاد أنطلق بالحديث عن بلدى، أو عن نفسى، حتى ينطلق من مخيلتى سكين يقطع لسانى.. كيف أتحدث اليها عن بلدى.. ربما كان فيما أقوله شىء يفيد الصهيونيين..

وأسكت مرة واحدة.. وأغيّر مجرى الحديث لأتحدث عن السينما أو عن المسرح أو عن كتاب قرأته..

وهى أيضا.. كانت أحيانا تسترخى على مقعدها، وأصابعها تعبث بجدائل شعرها الأحمر.. ثم تنطلق تتحدث عن حياتها فى فلسطين.. وفجأة

ترفع عينيها الىّ.. وتسكت.. وترتفع الى شفتيها ابتسامة مهزوزة، وتقول فى صوت مرتعش:

— اننا نضيّع عمرنا فى كلام.. تعال نلعب!

وكلانا يشعر بما يدور فى خلد الآخر.. كلانا متأكد أن الآخر يشك فيه.. كلانا يشعر أن حبه مخنوق..

وقد عدت أسألها:

— ما اسمك.. غريبة.. انى لا أعرف اسمك حتى الآن؟

قالت وهى تضحك:

— أنسيت.. ان اسمى فاطمة.. انت الذى سميتنى!

وكان يجب أن أكتفى بأن اسمها فاطمة.. كان يجب أن أفرح لاعتزازها بالاسم الذى اخترته لها.. اسم أمى.. كان يجب أن أعيش فى أوهام حبى.. ولكن هذا الحائط العالى يلقى ظله الأسود على قلبى.. فتركتها بعد قليل وذهبت أبحث فى سجلات الباخرة عن اسمها..

اسمها:

ماريا هوبر..

وجنسيتها:

أمريكية..

وتذكرت انى سبق أن سألتها: «هل هى أمريكية» فأجابت « تقريبا».. لقد كانت تعنى انها لا تزال محتفظة بجنسيتها الأمريكية، رغم أنها تقيم فى فلسطين..

ولم أقل لها انى عرفت اسمها.. ظللت أناديها باسم فاطمة.. وهى تنادينى باسم حسن، دون أن تسألنى عن بقية اسمى فى سجلات الباخرة..

وكنا نتناقش أحيانا.. ينطلق ما نخبئه بين طيات عقلينا، فى نقاش، نحاول قدر جهدنا أن يكون نقاشا هادئا، حتى لا نقتل به حبنا.. حبنا المسكين..

وكنا واقفين على ظهر المركب ورأسها مستند على كتفى، ووجهها مختبىء فى صدرى، وشفتاى تطوفان فوق جبينها العالى، وأصابعى

مندسة فى شعرها.. وهواء المحيط يلفنا.. والموج يتطاير من تحت أقدامنا كالحمامات البيضاء.. وكنا ـ نحن الاثنين ــ صامتين ، نحاول أن نرتفع بروحينا، وقلبينا عن هذا الحائط الذى يفصل بيننا.. ليخلص أحدنا للآخر.. لنكون حبا.. لا شىء سوى الحب.

وفجأة همست وكأن همستها انطلقت من خيالها:

— مالكم وفلسطين.. لماذا تحشرون أنفسكم فيها ؟

وأحسست كأن مسمارا دق فى أعصابى ليوقظنى من حبى.. وسكتُّ هنيهة ريثما تمالكت صوتى، وقلت وهى لا تزال بين أحضانى، وشفتاى لا تزالان تطوفان فوق جبينها:

— فلسطين بلدى.. وقومها قومى.. أنا عربى يا حبيبتى!

قالت كأنها تناجينى:

— انها وطنى أنا.. الوطن الذى وضعنا الله فيه..

قلت:

— لقد أخرجكم الله منها، منذ آلاف السنين..

قالت:

— أخرجنا على وعد أن نعود .. هكذا نصت التوراة..

قلت:

— ان آخر كتاب أرسله الله، يؤكد أنكم لن تعودوا..

قالت:

— تقصد القرآن..

قلت :

— القرآن ..

قالت وهى تضغط رأسها على صدرى فى حنان:

— سنعود..

قلت وأصابعى تسعى فى طيات شعرها:

— لا يكفى أن تكونوا يهودا ليكون لكم وطن.. ان الأوطان للشعوب لا للأديان.. وأنت أمريكية فلماذا لا تكتفين بأمريكا وطنا.. لماذا تبحثين عن

وطن آخر غير الوطن الذى ولدت وعشت فيه ونعمت بخيراته ووسدت أرضه أجساد أجدادك ؟

وسكتت..

ورفعت عينيها الىّ كأنها تبحث فى وجهى عن الحقيقة، ثم عادت ومالت برأسها فوق كتفى، وقالت كأنها تتنهد:

— اننا مضطهدون فى كل وطن.. لأن ليس لنا وطن..

قلت :

— لا .. ليس فى كل وطن.. انكم لستم مضطهدين فى أمريكا ولا فى انجلترا ولا فى مصر.. واذا كنتم قد اضطهدتم فى ألمانيا فليس معنى هذا ان يكون من حقكم أن تستولوا على وطن آخر.. كان يكفى أن تقاوموا الاضطهاد فى ألمانيا حتى تقضوا عليه والا كان من حق زنوج أمريكا أن يطالبوا بوطن لهم.. والمسلمون مضطهدون فى بعض البلاد ورغم ذلك فهم لا يطالبون لأنفسهم بوطن.. و...

وقاطعتنى وهى تعود وترفع رأسها الىّ:

— لقد اضطهد المسلمون فى الهند فجعلوا لأنفسهم وطنا من الباكستان.. وطنا خاصا بهم..

قلت:

— لا .. لقد كانت الباكستان دعوة سياسية.. ورغم ذلك فمسلمو الهند اتخذوا قطعة من الهند نفسها وجعلوا منها وطنا لهم.. لم يذهبوا الى بلد آخر ويستولوا عليه ويطالبوا بتشريد أهله ليحلوا محلهم..

والتفتت تنظر الى الموج المتطاير من تحت أقدامها، وقالت فى هدوء:

— دعنا من هذا الحديث.. انك لن تقنعنى، ولن أقنعك..

ثم وضعت يدها فى يدى، وابتسمت لى كأنها تحاول أن تمسح بابتسامتها ما بقى فى رأسى من آثار النقاش..

وشدتنى معها، وهى تقول:

— تعال نجلس. لقد تعبت..

وجلسنا على مقعدين متجاورين من المقاعد الطويلة المنشورة على سطح

الباخرة.. وسكتنا طويلا.. ورأيت عينيها هائمتين مكفهرتين كأنها على وشك البكاء.. ثم بدأت فجأة تتحدث عن بيت أهلها فى ضواحى نيويورك.

انه بيت كبير .. من ثلاثة أدوار.. وأثاثه كله قديم، بعض قطعه ترجع الى أيام جدها الخامس.. وغرفتها فى الطابق الثالث.. غرفة صغيرة دائما مشمسة، ودائما ضاحكة.. جدرانها مغطاة بورق فى لون الورد عليه رسوم لأطفال صغار يلعبون..

وكانت حجرتها مزدحمة بلعب كثيرة.. وكان عندها عروسة كبيرة سمتها لوسى.. وكان أبوها يدللها.. انه يحبها أكثر من باقى اخواتها، لأنها صغراهن، ولأنها أذكاهن.. وأمها دائما مشغولة.. ودائما تدعى الحزم والقسوة، ولكنها أكثر حنانا من أبيها.. كل ما هنالك أنها تخفى حنانها خلف قناع من حزمها..

وضحكت «فاطمة» ضحكة خافتة فيها رنين الطفولة، وعادت تروى قصتها:

— لقد أحببت لأول مرة وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى.. أحببت هنرى.. كان زميلى فى المدرسة.. وبدأت أفكر فى الزواج.. أليس غريبا أن أفكر فى الزواج وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى.. وكنت أتصور أبى يعارض فى زواجى.. كنت أعرف أنه سيقول أنى لا زلت صغيرة.. ولذلك بدأت أفكر مع هنرى فى الهرب لنتزوج.. وكنت أنا التى أضع خطة الهرب، وقبل أن أنفذها تشاجرت مع هنرى. لا أذكر لماذا تشاجرت معه، ربما لأنى رأيته يحادث فتاة أخرى ولكنى أذكر أنى نسيته بسرعة، واتخذت لنفسى صديقا آخر..

وخفتت الابتسامة على شفتى «فاطمة» وبدأ وجهها يغرق فى سحابة داكنة وقالت وهى تتنهد:

— لقد كان لنا أصدقاء كثيرون.. كان هناك دائما ضيوف لتناول العشاء أو الغداء.. وكان من بين الضيوف الدائمين، صديق لأبى فى الثلاثين من عمره.. اسمه ساسون.. وكان بعد الغداء أو العشاء يختلى بأبى ساعات طويلة فى حجرة المكتب المطلة على حديقتنا.. ولم أكن أعلم ماذا

يعمل ساسون.. ولكنى منذ كنت فى الرابعة عشرة من عمرى كنت ألمح عينيه تسقطان على وجهى كأنه يريد أن يأخذنى.. وكنت أحيانا أخاف عينيه وأحيانا أبحث عنهما.. وكنت دائما أسأل عنه أبى.. ماذا يعمل.. وأين يقيم؟ ثم بدأت أعرف انه سكرتير جمعية صهيونية فى نيويورك.. وبدأ أبى يحدثنى عن الصهيونية.. وعن وطننا الموعود.. اسرائيل.. ثم بدأ ساسون نفسه يحدثنى عنها.. ثم بدأ يشركنى فى أعمال الجمعية، وفى حملات جمع التبرعات لاسرائيل..

وعندما أصبحت فى السادسة عشرة من عمرى، أحببت ساسون.. ربما لم أحبه.. ولكنى استسلمت لشخصيته.. لعينيه اللتين تنظران الى وجهى كأنه يريد أن يأخذنى..

وأخذنى..

وأصبحت أترك البيت وأذهب الى نيويورك لأبقى هناك أياما، لأشترك فى تنظيم حملة التبرعات.

وكنت فى نيويورك أقيم فى بيت ساسون..

وفى فراشه..

ومع الأيام عرفت أنى لا أحب ساسون، ولكنى كنت قد بدأت أحب اسرائيل.. وكبر حبى.. فصممت على أن أهاجر الى هناك.. الى حلم قومى.

وعارض أبى.. عارض بشدة.. وقال لى أنه يدفع لاسرائيل من ماله ما يغنيه عن أن يدفع لها ابنته.. ولكنى صممت.. وأمى تبكى.. تبكى كل دموعها.. وهدد أبى الجمعية بأن يقطع عنها تبرعاته اذا ساعدتنى على الهجرة..

ولكنى هاجرت..

ولم يستطع أبى أن يحرم الجمعية من ماله.. ان الجمعية أقوى منه.. انها تستطيع أن تدمره.. وهو لا يستطيع أن يحرمها من ماله.

وتنهدت «فاطمة» وهى تقول:

— لقد استقبلونى فى فلسطين كأغلى جوهرة.. كان أبى قد دفع كثيرا لرجال الوكالة اليهودية حتى يهتموا بى.. واهتموا بى فعلا.. وعينونى

سكرتيرة فى الوكالة.. ولكنى زهقت من هذا الاهتمام.. كنت أريد منهم أن ينسوا انى ابنة فلان.. وأريد من أبى أن يكف عن دفع الرشاوى لهم. كنت أريد أن أعيش كإحدى البنات اليهوديات الفقيرات.. أريد أن أتخيل نفسى كجان دارك.. أريد أن أكون بطلة.. وتطوعت فى جيش الهاجانا.. منذ أربع سنوات وأنا أعمل مع الهاجانا.. وتعبت.. وقررت أن استحق أجازة.. نعم.. انى فى حاجة الى أجازة.. فى حاجة الى أيام ناعمة مريحة.. الى ناس لا يتحدثون عن القتال.. انى..

وسكتت «فاطمة» مرة واحدة.. وأغمضت عينيها كأنها طفلة نامت من التعب.

ونظرت اليها.. وقلبى فى حلقى.. أحسست كأنى أشفق عليها.. انها ضحية.. أريد أن أضمها الى صدرى.. لأحميها.. أحميها من قومها..

ولكنى لم أتحرك من مكانى.. بقيت أنظر اليها وهى مغمضة العينين، ثم قلت بلا تعمد منى:

— وهل علموك اطلاق الرصاص؟!

ولا أدرى ما الذى دفع بهذا السؤال الى لسانى.. انه سؤال غبى، وليس هذا وقته..

وسمعتها تقول فى هدوء:

— نعم.. علمونى كيف أطلق البندقية، ومدافع الهاون.. و..

وفتحت عينيها فجأة.. ونظرت الىّ وعيناها مكفهرتان، وشفتاها متقلصتان.. وقالت فى حدة:

— لماذا تسألنى هذا السؤال؟.. لقد تعبت منك.. تعبت.. انى معك دائما فى حرب.. لن استريح.. لن استريح ابدا معك..

وهبت واقفة، ثم استطردت:

— أرجوك.. ابعد عنى.

ثم نظرت الىّ نظرة جمعت فيها كل ارادتها وقالت فى حزم مبحوح:

— الوداع..

ثم ابتعدت فى خُطى عصبية..

وأنا واقف أتبعها بعينين مذهولتين.

●●●

ولم تظهر فى قاعة الطعام ساعة تناول العشاء..

وجلست وحدى أمضغ غيظى.. ولم أكن مغتاظا منها، بل كنت مغتاظا من ساسون.. كان تفكيرى فيها يؤدى الى التفكير فى ساسون.. وكنت أتصوره وجها بشعا، يسيل لعابه على جانبى شفتيه، وتبرق عيناه ببريق الجشع.. عينان ليسا من لحم ودم وأعصاب، ولكنهما من حديد.. من ذهب.. جامدتان.. تشدان الضحايا اليهما، ثم تصهرانهم ببريقهما، وتحيلانهم الى قوم مهووسين.. يقتلون.. ويدمرون.. وساسون يقهقه عاليا، ولعابه يسيل على جانبى شفتيه..

ان ساسون هو عدوى.

فاطمة ليست عدوتى.

انها حبيبتى..

انها الانسان..

وساسون عدوى، وعدو الانسان..

أريد أن أقتل عدوى..

أقتل ساسون.. أقتل الجماعة التى يمثلها ساسون.. العقلية الرهيبة التى يفكر بها ساسون..

وقمت منتفضا، وتركت قاعة الطعام قبل أن أتناول طعامى، وخرجت الى سطح الباخرة، وتركت نفسى للهواء البارد يرطب أعصابى.. والليل ساج خاشع، تنساب فيه أشعة القمر كأنها أوتار قيثارة تعزف لحن الأبد.. والأمواج.. والنجوم.. واللانهاية.. يارب.. كل هذا الهدوء، وكل هذا الجمال، وكل هذا السلام.. وساسون يحرض الناس على الحرب!!

وقمت أسير كأنى أسبح فى الليل.. وتحت زورق من زوارق الانقاذ المعلقة بالباخرة، رأيتها..

كانت فى ثوب بلون الورد، ينسدل عليه شعرها الأحمر، وفوق كتفيها شال أبيض.. كآلهة الفجر.. واقفة فى انتظار موعدها لتشق الليل..

واقتربت منها فى خطوات صامتة، ووقفت خلفها وهى مطلة بوجهها على مياه المحيط.. ووقفت طويلا وهى لا تنتبه الىّ.. أو من يدرى، ربما كانت تشعر بى قريبا منها.

وقلت هامسا كأنى أصلى:

— من يملك المحيط؟!

وسمعتها تجيب دون أن تلتفت الىّ:

— لا أحد .. لا أحد..

قلت :

— انه ملك الله..

قالت :

— ونحن أيضا ملك الله..

واستدارت الىّ ، والمفاجأة تبدو فى عينيها كأنها ثورة.. ولكن ثورتها ما لبثت أن هدأت، ولانت نظراتها، وطافت بشفتيها نهدة مكتومة..

وقلت وأنا أضمها بعينىّ:

— ان النار على الأرض.. ولكننا هنا بعيدا عن الأرض..

وابتسمت .. وعادت تطل فى الماء.

واقتربت منها أكثر.. وقفت بجانبها وكتفى يلامس كتفها.

وقالت كأنها تحلم:

— لو كان لنا طوق من الخشب نعيش عليه وسط المحيط.. لعشنا فى سلام..

قلت وأنا أبحث عن يدها لأضمها بيدى:

— لما اختلفنا. لما كنا يهودية ومسلما.. ولا أمريكية وعربيا.. لكنا نحن الاثنين أبناء الله..

وقالت وهى تتنهد:

— أليس غريبا أن يسعنا طوق صغير من خشب.. ولا تسعنا الأرض الواسعة..

قلت وأنا أمسح وجهها بعينى:

— أى مكان للحب.. مكاننا..

وسكتت برهة.. ثم اتسعت ابتسامتها وقالت:

— عندما تكون فوق الطوق الخشبى وتقوم العاصفة سأتعلق بذراعك.. لتحمينى..

قلت وأنا ألف ذراعى حولها:

— وعندما تهدأ العاصفة سأقبلك..

وسكتنا..

وعيناها فى عينى..

عيون هادئة، مبتسمة..

ورفعت شفتيها الى شفتى..

وغبنا..

●●●

وضوء الفجر يتسلل الى غرفتى.. وثوبها الوردى هادىء فوق جسدها، وشعرها الأحمر هادىء فوق وسادتى، ووجهها مختبىء فى عنقى، وذراعها ملقى باهمال فوق صدرى..

وقالت كأنها تهم بالبكاء:

— لا أريد أن أعود الى الأرض..

وقلت وأنا أضمها فى رفق:

— ولا أنا.. لم يعد لى عودة الا اليك..

وسكتت قليلا، وأنفاسها ترف حول عنقى، رفيف فراشات من حرير..

ثم اعتدلت جالسة بجانبى، وقالت فى فرحة:

— لن نعود الى الأرض.. تعال نعبر المحيط مرة ثانية.. ما رأيك؟

ونظرت اليها فى دهشة:

انها فكرة مجنونة..

ولكنى لست على موعد مع الولايات المتحدة.. والرحلة أقوم بها للراحة أكثر منها للعمل.. وأنا مرتاح بعيدا عن الأرض.. على الأرض حقد..ونار..

وسمعتها تقول مرة ثانية:

— ما رأيك؟

قلت:

— موافق.. أيام أخرى بعيدا عن الأرض..

●●●

واتفقنا على أن نبقى على الباخرة عندما تصل نيويورك.. أن نختبىء فيها.. ثم نعود عليها الى الشاطىء الانجليزى.. نعبر المحيط.. ثم نعبره مرة ثالثة الى نيويورك.

وذهبنا الى قبطان الباخرة وأطلعناه على خطتنا.. فوافق عليها.. وقال وهو يضحك:

— فى العودة .. لا بد أن أعقد قرانكما..

واحمر وجه فاطمة..

وضغطت على يدها..

ثم أسرعت فاطمة وأرسلت برقية الى أهلها حتى لا ينتظروها على الميناء.

●●●

وبقيت الباخرة فى الميناء يومين، لم نر خلالهما نيويورك.. ولو من بعيد.. كنا لا نريد أن نرى الأرض واستطعنا أن نقنع أنفسنا أننا فى وسط الماء.. نعيش على طوق صغير من الخشب.. وكنا دائما فى غرفتى، أو فى غرفتها.. فاذا خرجنا الى السطح خرجنا الى الجانب المطل على المحيط، لا الجانب المطل على الميناء.. حتى لا نرى الأرض!!

وتحركت الباخرة..

وعشنا أربعة أيام أخرى وسط المحيط.. اثنان من أبناء الله.. ولم نختلف.. ولم نتناقش.. نسينا الأرض.. وارتفعنا فوق هذا السور العالى الذى يفصل بين أبناء الله ويلقى ظله الأسود فى قلوبهم.. وعندما ارتفعنا وجدنا عالما جميلا رائعا، تصفو فيه النفس، ويرق فيه الحس.. واكتشفنا فى عقل الانسان مواضيع كثيرة يستطيع أن يقضى العمر كله يناقشها دون حقد، ودون اثرة، ودون قتل..

ثم كان يوم..

اليوم الذى تصل فيه الباخرة الى الشاطىء الانجليزى..

وقمت فى الصباح وأخذت الجريدة التى تصدر على ظهر الباخرة.. وكنت أقرأها قبل أن التقى بفاطمة.. وكانت هى الأخرى تقرؤها قبل أن تلتقى بى.. ثم ننسى ما قرأناه ولا نناقشه..

ولكننا فى هذا اليوم لم نستطع أن ننسى ما قرأناه..

ان الحرب أعلنت فى فلسطين..

والتقينا فى مكان لقائنا كل صباح..

وجهها مكفهر..

ووجهى ينطق بالأسى..

ولم نتصافح..

لم نبتسم..

وقف كل منا قبالة الآخر، كأن كلا منا يبحث فى وجه الآخر عن مقر..

كنت أستطيع أن أقرأ ما فى رأسها..

وكانت تستطيع أن تقرأ ما فى رأسى..

وقلت فى هدوء:

— هل تذكرين.. لقد وعدتنى أن تتعلقى بذراعى اذا هبت العاصفة ؟..

وشدت قامتها ورفعت رأسها، كأنها تهم بالانضمام الى طابور عسكرى، وقالت:

— لقد كنا نتحدث ساعتها عن عاصفة تهب على المحيط.. ولكن هذه عاصفة تهب على الأرض..

قلت وصوتى مبحوح:

— لا تذهبى.. أرجوك لا تذهبى.

قالت فى حدة:

— لا تذهب أنت..

قلت:

— انى أذهب لأدافع عن حق.. لأحارب قوماً خدعوك..

قالت:

— انهم قومى.. انى معهم.. لم يخدعونى.. انه حقنا..

قلت :
— يا مسكينة.. انت مخدوعة.. انك ستحاربين مع الجشع، مع الطمع..
قالت:
— لا .. انت المخدوع.. خدعتك عروبتك..
قلت :
— انها أرضى، ولا يخدعنى فيها أحد.. و..
قالت تقاطعنى:
— أرجوك .. لن نتفق. كلانا سيذهب..
وسكتنا..
وعادت تشد قامتها، وترفع رأسها وتنظر الىّ كأنها لا تصدق عينيها..
ووقفت انظر اليها كأنى أراها تساق أمامى لتذبح تحت أقدام الطمع..
وقالت وطبقة من الدموع تطفو فوق عينيها:
— قد نلتقى هناك.. فى الميدان.
قلت بلا مبالاة:
— ربما..
قالت:
— وسأقتلك..
قلت:
— وسأقتلك..
وعادت تنظر الىّ فى صمت.. ثم غطت وجهها بكفيها لتخفى دموعها..
وجرت من أمامى..
وأنا انظر خلفها كأنى أراها تجرى الى المذبح.. حيث يذبحون الحب..
ولم نلتق بعد ذلك..
ذهبت الى غرفتى بالباخرة وقضيت الوقت أعد حقائبى حتى رست الباخرة فى ميناء سوثهامبتون..
وتلفت أبحث عنها بين الركاب النازلين، فلم أرها..
ونزلت.. وأدرت رأسى الى الباخرة أودعها.. وابتسمت ابتسامة

مسكينة.. ابتسمت وأنا اتخيل الباخرة الكبيرة، طوقا صغيرا من خشب يحملنى أنا وفاطمة وسط المحيط..
وسافرت الى لندن، ومنها ركبت أول طائرة الى القاهرة..
ويأسى من حبى يتحول فى قلبى وأعصابى الى طاقة هائلة من الحقد.. الحقد على ساسون.. على الذين يخدعون قومهم اليهود ليحاربوا بهم العرب.. وقضية فلسطين تكبر وتتسع.. انها ليست قضية حول وطن.. انها قضية الانسان.. قضية حق الانسان فى السلام والحب.. الانسان فى القاهرة، وفى نيويورك وفى باريس، وفى لندن.. و..
انى ذاهب لأحارب، لا من أجل فلسطين.. بل من أجل فلسطين والانسان.. لا من أجل قومى.. بل من أجل قومى وقومهم.
وبمجرد وصولى الى القاهرة انضممت الى كتائب الفدائيين.
وذهبت الى فلسطين وسلاحى فى يدى..
ومشيت على الأرض الطاهرة أطلق النار.. لم أكن أريد أن أقتل، ولكنى كنت أريد أن أزيح هؤلاء المخدوعين من طريقى.. لأصل الى ساسون.. لأصل الى بؤرة الحقد التى تسمم قلوب البشر، فأدمرها.
وكنت أبحث عن فاطمة بين وجوه أعدائى.
وتختلط علىّ الوجوه أحيانا، فيهتز سلاحى فى يدى هنيهة.. يهتز برعشة قلبى.. ثم أتمكن من السلاح.. وأطلقه.
ووصلت الى أسدود..
ومنحونى وساما..
ولكنى فى أسدود تبينت أن المعركة يجب أن تبدأ من أولها.. أن تبدأ من القاهرة..
وعدت الى القاهرة..
عدت لأحارب معركة أخرى فى سبيل مصير الانسان..
وانضممت الى جماعات الثوار.
عشت طويلا فى انتظار الثورة، لأعود بعدها الى فلسطين..
انى فى القاهرة أثور لقومى.

وأريد أن أعود الى فلسطين لأثور من أجل قوم حبيبتى..
انى لا أحارب..
ولكنى أثور..
أثور للعرب.. وأثور لليهود.
ونجحت ثورة العرب..
وبدأت أشترك فى الإعداد لثورة اليهود.. ثورتهم على الذين يقطرون الحقد فى قلوبهم.. على الذين يقتلونهم فى سبيل أطماعهم.. على الصهيونيين.
ومرت خمس سنوات..
سنوات وهبت فيها قلبى لقضية الانسان. لم أعرف خلالها فتاة.. لم أفكر فى الزواج.. لم يخفق قلبى بحب جديد.. كنت أعلم أن الحب لن يعيش ولن ينتصر الا اذا قضى على أعدائه الذين يحتلون فلسطين.. وفاطمة فى خيالى.. وثوبها فى لون الورد، وشعرها الأحمر ينسدل حول وجهها، والوشاح الأبيض ينسدل على كتفيها، كأنها آلهة الفجر فى انتظار موعدها، لتشق الليل..

●●●

وبعد خمس سنوات سافرت الى نيويورك فى مهمة رسمية.. سافرت بالطائرة هذه المرة.
ودخلت أحد المخازن الكبرى فى «الشارع الخامس» لأشترى معطفا واقياً من المطر..
ورأيتها..
انها هى..
شعرها الأحمر.. وعيناها فى لون قشر البندق. وعلى وجهها مسحة من الشرق..
واقتربت منها، ووقفت قبالتها.. لا أتكلم.. لا أستطيع الكلام..
ورفعت عيناها الىّ وشهقت.. وصدرت من بين شفتيها همسة:
— أنت؟!!
وقلت وخفقات قلبى تمزق صوتى:

— نعم .. أنا..
وعدنا الى الصمت.. وعيناى فى عينيها.. ان عينيها أهدأ مما عرفتهما.. ووجهها مستكين.. مستريح.. وجه بلا مشكلة..
وقلت:
— متى جئت الى نيويورك؟
وابتسمت ابتسامة صغيرة وقالت:
— انى أقيم فى نيويورك..
قلت فى دهشة:
— منذ متى؟
قالت وهى لا تنظر الىّ:
— منذ خمس سنوات..
وقلت:
— واسرائيل؟
قالت وهى لا تزال تبتسم:
— انى أمريكية..
قلت:
— واسرائيل؟
قالت وهى تنظر الى بوز حذائها:
— تركتها..
قلت والدهشة تكبر فى صدرى:
— لماذا؟
ورفعت عينيها الىّ، وقالت وابتسامتها الصغيرة معلقة بين شفتيها :
— ربما.. لأنى لا أستطيع أن أقتلك!!

●●●

ومدت يدها لتلتقى بيدى..
لقاء سريعا فى ومضة حب، ورعشة حنان..
وسحبت يدها من يدى، وهمست:

— الوداع..
واستدارت لتمشى..
ولاحقتها.. فالتفتت الىّ وقالت:
— أرجوك..
وابتعدت..
ووقفت اتبعها بعينى، وفى قلبى أمل..
أمل فى مستقبل الانسان.

●●●

انى لا زلت أجاهد من أجل فلسطين.
من أجل الانسان..
من أجل الحب.



الحقــــد



لى قصة حب عجيبة بدأت عندما كنت فى العشرين من عمرى طالباً فى كلية الحقوق ، وانتهت وأنا لا زلت طالباً فى كلية الحقوق ..

كنت أيامها شاباً مثالياً.. مثالياً فى تفكيرى، ومثالياً فى عاطفتى.. كنت أومن بالمبادىء التى أقرأ عنها، والشعارات التى اسمعها.. وكنت أحب كل الناس.. أحب الناس كما أحب العصافير والقطط والزهور.. أحب الأغنياء والفقراء.. والصغار والكبار.. وأومن ان الانسانية لايمكن ان تتقدم إلا بالحب..

وكان لى صديق، يشاركنى ايمانى بالانسانية، وان لم يكن رقيق العاطفة مثلى.. وذهبت مع صديقى مرة إلى كلية الآداب، وهناك عرَّفنى بأخته.. زينب.. واحسست عندما التقت عيناى بعينيها انى وهبتها كل ما فى قلبى من حب.. احسست الانسانية كلها قد تجمعت فيها.. وكانت جميلة.. ولكن جمالها كان له طابع القوة.. قوة الانسانية.. وقد احسست انى فى حاجة إلى هذه القوة لتساعدنى على حمل عواطفى التى يفيض بها صدرى، وحمل أفكارى التى يزدحم بها عقلى..

وبدأت أتردد على كلية الآداب وحدى.. وأبحث عن زينب، وأقف معها لنتحادث طويلاً.. ثم بدأت اكتشف انها شقية.. وسر شقائها انها فقيرة..

ولم أكن أنا غنياً، ولكنى لم أكن فقيراً.. لم أكن أحس بالفقر.. ولم أكن أعلم ان الاحساس بالفقر يمكن ان يؤدى إلى كل هذا الشقاء..

وكان شقاء زينب يختلط بقوة شخصيتها، وبإصرارها على تحدى الناس.. وأدى بها هذا التحدى إلى السخط على الدنيا.. وإلى الحقد.. والغيرة.. وربما لو كانت ضعيفة فى شخصيتها، لاستسلمت لظروفها، وخف عنها احساسها بشقائها..

وكانت زينب تعيش مع امها وجدتها وأخيها.. كانوا يملكون بيتاً من أربع شقق فى حى الظاهر، يقيمون فى شقة منه، ويؤجرون الشقق الباقية،

بايجار لايزيد عن عشرين جنيهاً.. أما أبوها، فقد طلق أمها من زمن، وكان يرسل لها ولأخيها خمسة جنيهات فى الشهر..

أى ان إيراد العائلة كله كان حوالى خمسة وعشرين جنيهاً فى الشهر.. أى انهم ليسوا فقراء جداً.. ولكن.. ان حدة الاحساس بالفقر تزيد كلما انخفضت نسبة الفقر نفسه.. فالموظف الذى يتقاضى خمسة عشر جنيهاً يحس بالفقر أكثر من العامل الذى يتقاضى ثمانية جنيهات.. ان الإحساس بالفقر لا يقاس بالحالة التى أنت فيها، ولكنه يقاس بالحياة التى تطمع فيها..

ورغم ذلك فقد أحببت زينب.. واعتقدت ان احساسها بالشقاء والحقد والغيرة، ليس عيباً فيها.. ولكنه عيب فى الانسانية كلها.. عيب استطيع ان اداويه بالحب..

وأفضت عليها الحب..

ولكنها لا تزال شقية.. تتعذب بحقدها على الدنيا.. انها تكره كل سيارة تمر بها، وكل فتاة ترتدى ثوباً جميلاً، وكل شاب يضحك.. انها تكره.. وتكره.. وتكره.. وتسيطر على عائلتها بشخصيتها القوية.. وتنفث فيهم احساسها بالحقد والكراهية.. وتقودهم فى معركة عنيفة قاسية للتغلب على الفقر..

وكنت قد بدأت أتردد على عائلتها.. وأزورهم كل يوم تقريباً.. وعرف اخوها، وعرفت أمها وجدتها انى احبها.. ورحبوا بهذا الحب.. كشىء جميل يخفف عنهم شقاءهم.. ولأنهم كانوا يثقون بى..

واعتقدت ان زينب تبادلنى الحب..

كانت تحبنى فعلاً..

ولكنه كان حباً غريباً.. كان حباً تتسلل إليه خيوط من الحقد على المجتمع.. المجتمع بما فيه أنا.. كنت أحياناً أحس انها تحقد علىَّ لأنى لا أعانى احساساً بالفقر.. لأنى لا أشعر بما تشعر به من حقد وسخط.. ولكن هذا لم يضعف إيمانى بأنها تحبنى.. ولا اقتناعى بأنى أحبها.. كل

ما كنت فى حاجة إليه هو مزيد من الأيام لأمسح عن صدرها هذه القوة المدمرة.. قوة الحقد.. أمسحها بالحب..

واقترحت زينب على أهلها، ان يقسموا شقق البيت الذى يملكونه، كل شقة إلى شقتين.. وبذلك يصبح فى البيت ثمانى شقق بدلاً من أربع، فيستطيعون ان يحصلوا على إيجار أكثر..

ووافق أهلها..

وحاولت ان اعارض.. فان الشقق إذا قسمت ستصبح صغيرة، ضيقة، متعبة.. ينفر منها السكان..

ولكن معارضتى لم تثمر إزاء اصرار زينب..

ووضعت العائلة كل مدخراتها فى عملية تقسيم الشقق.. ثم عرضوها للايجار.. ووجدوا لها سكاناً.. وزادت حصيلة ايجارها.. زادت ثمانية جنيهات فى الشهر.

وفرحت زينب بهذه الثمانية جنيهات، فرحة اليهودى بالقرش.. ولكن فرحتها مالبثت ان خفتت عندما وجدت نفسها تعيش فى الشقة الصغيرة الضيقة.. فى حجرة لا تتسع لأكثر من فراش تنام عليه هى وأمها، بينما الدولاب الذى يضم ثيابها وتتزين فى مرآته موضوع فى الصالة..

واشتد احساسها بالفقر أكثر من الأول.. واشتد الحقد والسخط والغيرة فى صدرها..

ثم بعد مدة.. فكرت زينب فى مشروع آخر..

كان فى بدروم البيت حجرة مظلمة، يكدسون فيها قطع الحجارة التى تخلفت عن عملية البناء، ويكدسون معها كل المهملات.. رجل مقعد مكسورة.. طبق مكسور.. ووعاء مخروق.. الخ..

وقررت زينب ان تنظف هذه الحجرة، وتفتح فيها شباكاً.. وتؤجرها.. ان ايجارها لن يقل عن جنيه فى الشهر..

ولم احاول ان اعترض هذه المرة..

وذهبت اليهم يوماً، وسألت عن زينب فقيل لى انها فى البدروم.. ونزلت

اليها ورأيتها ترفع بيدها قطع الحجارة الثقيلة من الحجرة المظلمة، وتحملها لتضعها أمام البيت.. وشعرها مهدل فوق جبينها.. وشفتاها مزمومتان.. ونظرات قاسية عنيدة فى عينيها..

ولم اتكلم..

احسست كأنى أخاف منها.. من هذه القوة العنيدة المنطلقة من ملامحها.

وانحنيت فى صمت لأحمل حجراً وأخرج به إلى الطريق.. كما تفعل هى..

فإذا بها تصرخ فى وجهى صرخة قاسية :

— ابعد من هنا .. اوعى تشيل حاجة.. انت مش وش الحاجات دى.. أحسن بعدين توسخ هدومك..

كانت صرخة فيها كثير من الحقد الساخر..

ونظرت إليها طويلا ، كأنى أبحث فى وجهها عن شىء ضائع.. ثم ألقيت الحجر من يدى.. وخرجت دون أن أتكلم..

ورغم ذلك كنت لا أزال أحبها..

وكنت واثقا من أنى أستطيع أن أسعدها ، ثقتى بالإنسانية نفسها..

ثم فجأة قررت أن أتزوجها.. لعلها عندما تتزوج تهدأ.. وترتاح من الحقد والكراهية اللذين يملآن صدرها.. ترتاح من إحساسها بالفقر.. وتطمئن إلى مستقبلها..

وتقدمت إليها خاطبا ..

وفرحت ..

وفرح أهلها ..

وأقمنا حفلة صغيرة لأضع فى إصبعها خاتم الخطوبة .. ولم يحضر الحفلة أحد من عائلتى.. فلم يكن أبى أو أمى يمكن أن يقرا زواجى..

وأخرجت الدبلة من جيبى ، وقلبى يخفق حبا.. ومدت إصبعها، وما كدت أهم بالاقتراب بالدبلة منه، حتى سمعتها تقول :

— طبعـا أنت فاهم إنى مـاكنتش لازم أتخطب لـواحد لســه ماخـدش الليسانس..

ورفعت إليها عينىّ دهشاً ..

ثم فجأة انقلبت دهشتى إلى ثورة ..

وسحبت الدبلة بعد أن وصلت بها إلى نصف إصبعها ، وأعدتها فى جيبى وقمت واقفاً وأنا أقول فى غيظ مكتوم :

— بلاش .. لا مؤاخذة .. السلامو عليكو ..

وخرجت كالقذيفة المنطلقة من البيت ..

ولا أدرى إلى الآن لماذا فعلت هـــذا .. لماذا فسخت خطبتــى .. ربما لأنى اكتشفت ساعتها أن الإنسانية ليس لها قيمة فى نظرها، إنما القيمة هى قيمة الليسانس.. أنا وحبى لا نساوى ما يساويه الليسانس..

وإلى الآن لا زلت أتساءل : هل كنت أحبها حقا .. وهل أردت أن أتزوجها حقاً ؟

وإلى الآن لا أستطيع أن أجد الجواب ..

●●●



اكتشاف عدو الحب



اسمى : محمد عبدالله فهمى..

مؤهلاتى : خريج قسم الفلسفة بكلية الآداب عام ١٩٤٣..

وظيفتى : مزارع .. أملك وحدى مائة فدان..واذا لم تؤمنوا بأن الزراعة مهنة .. فتستطيعون أن تعتبرونى عاطلا .. أو فيلسوفا..

وقد قررت أن أقدم لكم نفسى بمناسبة الاكتشاف الخطير الذى اكتشفته..

لقد اكتشفت عدو الحب.. العدو الذى ينتصر دائما على كل حب.. ويقتله.. ويحيله الى تراب باهت يسمى الذكريات..

ولعلكم لن تفهمونى تماما الا اذا سردت لكم تجاربى فى الحب.. التجارب التى انتهت بى الى هذا الاكتشاف العجيب، وهذه النظرية الجديدة، التى اعتقد أنها لا تقل خطورة عن نظرية أفلاطون فى الحب.. واذا كانت نظرية أفلاطون قد سميت «الحب الأفلاطونى» فانى اقترح أن تسمى نظريتى «الحب العبد اللاوى»، نسبة الى والدى الشيخ عبدالله فهمى.. فإنى أحب والدى ـ رحمه الله ـ ويهمنى تخليد ذكراه..

وهاكم تجاربى مع الحب ..

لقد أحببت لأول مرة وأنا طالب فى كلية الآداب.. كنت فى السنة الرابعة عندما التحقت أمينة بالكلية.. وحاولت أن أبدو أمامها كطالب كبير، وأن أعاملها كأستاذ.. ولكن الحب بدأ يتسلل الى قلبى كمخدر لذيذ لطيف.. فبدأت أنسى نفسى (لاحظوا انى استعملت كلمة أنسى).. أصبحت كلما قابلتها أنسى أنى طالب كبير فى الليسانس.. وأنسى أن ورائى دروسا كثيرة لم أستذكرها بعد.. وأنسى متاعبى مع والدى رحمه الله.. وأنسى.. وأنسى.. كنت وأنا معها أحس بالتحرر (لاحظوا كلمة: تحرر).. التحرر من عمرى.. ومن مسئولياتى.. ومن مشاكلى.. وكنا نسير سويا فى شوارع

الجيزة ساعات طوالا ، نضحك، ونتخيل الدنيا كأننا نملكها..

ويوم ظهرت نتيجة الليسانس، خطبت أمينة.. وبعد شهر واحد تزوجتها.. وأقمنا فى بلدتنا.. ومضى شهر وشهران، ونحن نمرح فى عالم النسيان والتحرر.. نجرى وراء بعض فى الحقل.. ونركب الخيل.. ونجلس تحت شجرة الجميز.. وندور فى الساقية.. لا نكف عن الضحك الا لنتبادل القبلات..

وفى إحدى الليالى دعانى صديقى مجدى فتح الله لقضاء السهرة فى عزبته المجاورة لعزبتنا.. وذهبت اليه والسعادة ملء ثيابى.. وطالت السهرة، وشربت عدة كؤوس.. ثم عدت الى بيتنا وأنا ألكز حصانى فى جنبيه ليسابق الريح نحو حبيبتى.. ودخلت على أمينة، وأذناى نهمتان الى ضحكتها، وشفتاى نهمتان الى قبلاتها.. فإذا بى أراها كما لم أرها من قبل.. بوزها طوله شبران.. وشرر من نار ينطلق من عينيها.. وصدرها يتهدج كأنه منفاخ قديم..

لا .. ليست هذه أمينة.. ليست هذه هى الفتاة التى أحبها.. انى لم أرها هكذا من قبل، وإلا لما أحببتها، ولما تزوجتها.. واقتربت منها كأنى أريد أن أتأكد من شخصيتها، فصرخت فى وجهى بصوت قبيح:

ــ ابعد عنى .. اوعى تلمسنى!

وتراجعت فعلا، وأنا أرتعد، وقلت فى ضعف:

ــ مالك يا أمينة.. حصل ايه؟

وصرخت :

ــ يعنى مش عارف حصل ايه ؟ .. كنت فين حضرتك لغاية دلوقت؟.. فاكرنى خدامتك علشان أقعد استنى لوحدى لغاية الفجر..

ولم نكن قد وصلنا الى الفجر.. كانت الساعة لم تتجاوز الثانية عشرة.. وأحسست بغصة .. أحسست كأنى أفيق من حلم جميل..

ولا أطيل عليكم.. لقد بكت أمينة ليلتها، وظلت تبكى حتى الصباح.. وبدأ يوم جديد وأنا أشعر بأن ما يجمعنى بأمينة ليس هو الحب، ولكنه المسئولية.. مسئوليتى كزوج.. وبدأ هذا الاحساس بالمسئولية يتغلغل يوما

بعد يوم، فى كل تفاصيل حياتنا. أصبحت أعود اليها فى الساعة الثامنة مساء بحكم مسئوليتى كزوج، لا لأنى فى شوق اليها.. وأصبحت أتناول طعام الغداء معها بحكم المسئولية لا لأنى أحب أن أجلس معها على مائدة واحدة.. بل أصبحت قبلاتى لها نوعا من المسئولية ونوعا من «الواجبات» الزوجية.. أصبحت قبلات بلا حس، لها طابع معين لا يتغير، بل إن عددها أيضا لا يتغير.. ونفس المعاشرة الزوجية.. أصبحت معاشرة زوجية لا معاشرة حب.. وأصبح لها مواعيد معينة كبرنامج ساعة لقلبك الذى تذيعه محطة الاذاعة.. مساء كل يوم جمعة.. ومساء كل يوم اثنين.. طبقا للسنة المحمدية..

وبدأت أضيق بالحياة.. لم أعد استطيع أن أنسى مشاكلى، بل إن مشاكلى زادت مشكلة جديدة، مشكلة اسمها أمينة.

وتحايلت عليها حتى أقنعها بأن ننتقل من البلد ونقيم فى القاهرة.. لعل القاهرة تخفف من الضيق الذى يكتم أنفاسى..

وفى القاهرة قابلت كوثر.. مطلقة صغيرة سمراء.. وحاولت فى أول الأمر أن أبدو أمامها كرجل وقور، وزوج مسئول يحترم مسئولياته الزوجية.. ولكن الحب بدأ يتسلل الى قلبينا.. وبدأت أنسى وقارى، ومسئولياتى، ومشاكلى، وعمرى.. وأمينة.. وأصبحت حياتى معها ضحكة كبيرة يغرق فيها قلبى وعقلى.. أصبحنا نمرح فى حدائق الجزيرة.. وفى منتديات القاهرة.. كأننا عصفوران يملكان كل الأرض وكل السماء.. ثم أصبح لنا بيت صغير، يضم ضحكتنا الكبيرة، ويضم قبلاتنا التى لا تنتهى..

وكنت صريحا مع كوثر، وقلت لها أنى لن أتزوجها.. ان الزواج غلطة لا يكررها الرجل العاقل أبدا.. وأنا كما يبدو لكم، رجل عاقل..

ورضيت كوثر أن تعيش معى بلا زواج..

وقسمت حياتى قسمين: قسم للحب الجميل تحتل عرشه كوثر، وقسم للزوجية الباردة تحتله أمينة احتلالا عسكريا..

وفى يوم كنت مع كوثر فى البيت، وكانت معها إحدى صديقاتها.. ولم أفعل شيئا الا أنى أردت أن أكون لطيفا مجاملا مع هذه الصديقة..

أقسم بالله انى لم أكن أقصد شيئا آخر.. ولكن.. اذا بوجه كوثر يكفهر، وينتفخ، ويصبح ككرة القدم.. اننى لم أرها أبدا هكذا.. ثم اذا بها تتخلص من صديقتها بسرعة، ثم تصرخ فى وجهى:

— يعنى مش كفاية راضية بمراتك.. داير تبصبص لصاحباتى.. و..

وانفجرت فى موشح طويل، كأنها أصبحت آلة راديو خربة.. وبدأت أشعر أن ما يجمعنى بها هو مسئولياتى نحوها كعشيق.. واستطاعت كوثر أن تجعل من مسئوليات العشيق شيئا أكبر من مسئوليات الزوج.. انها تحاسبنى أكثر مما تحاسبنى زوجتى.. ولأنها تعرف جميع الحيل التى أخدع بها زوجتى، لم تكن تصدق أية حيلة أحاول أن أخدعها بها، بل لم تعد تصدقنى حتى لو كنت صادقا ولا أحاول خداعها.. وهى تطلب منى أكثر مما تطلب زوجتى.. تطلب من مالى، ومن وقتى، ومن رجولتى..

وبدأ ثقل المسئولية يضغط على قلبى.. وبدأت أفقد لذة الحب.. ضاعت الضحكة الكبيرة.. وضاعت القبلات النهمة.. أصبحت قبلات لها عدد، ولها موعد معين.. وبدأت أعرف واجباتى نحوها يوم الثلاثاء ويوم السبت.. وواجباتى يوم الاثنين ويوم الأربعاء.. و..و..

وضقت بنفسى.. لم أعد أستطيع أن أنسى مشاكلى، ولا أن أنسى زوجتى.. وزادت علىّ مشكلة جديدة اسمها: كوثر..

ثم التقيت بناهد.. و..

انى لا زلت فى أيامى الأولى مع ناهد، وقد بدأت أشعر بالحب يتسلل الى قلبينا.. وأكاد أجزم بالنتيجة التى سأنتهى اليها مع ناهد.. انها نفس النتيجة التى انتهيت اليها مع أمينة ومع كوثر..

ماهى خلاصة هذه التجارب؟

لقد فكرت كثيرا.. واستعنت بنزعتى الفلسفية.. ولا تنسوا أنى خريج قسم الفلسفة بكلية الآداب عام ١٩٤٣.

وانتهيت الى النظرية التالية:

«ان الحب هو الاحساس بالمسئولية.. وبين الحب وهذا الاحساس بالمسئولية صراع دائم.. فاذا كان الحب قويا استطاع ان ينتصر على عدوه،

واستطاع ان يهصم المسئولية.. واذا كـان الحب ضعيفا انتصر عليه العدو.. قتلته المسئولية..»

هذه هى نظرية.. الحب «العبد اللاوى»..

واذا طبقت هـذه النظريـة على تجاربى، اتضح لكم أن حبى كـان دائما أضعف من الاحساس بالمسئولية.. فكانت المسئوليات تقتله..

وأذا أردتم مزيدا من التفاصيل فانتظروا كتابا سأخرجه قريبا..

الفيلسوف

«محمد عبداله فهمى»

طبق الأصل

رقم الإيـداع : ٨٢٠٦ / ١٩٩٦

الترقيم الدولى 2 - 0283 - 08 - 977